

رواية

عقار رشدى

الطبعة ٢

أحمد سلام

حدوتة للنشر والتوزيع

أحمد سلام

عقار رشدي

حدوتة للنشر والتوزيع

عقار رشدي

الكتاب	عقار رشدي
المؤلف	أحمد سلام
الطبعة الأولى	يناير ٢٠١٦
الطبعة الثانية	ديسمبر ٢٠١٦
رقم الإيداع	2016/3431
الترقيم الدولي	978 - 977 - 85224 - 6 - 4
غلاف	عبدالله رجب
تصحيح لغوي	حدوتة للنشر والتوزيع
مدير النشر	محمد زهدي
مدير التوزيع	معتز زهدي

الهاتف: 01096284506 .. 01096966904

البريد الالكتروني: 7dota.publishing@gmail.com

الصفحة الرسمية: https://www.facebook.com/7dota.Publishing

عقار رشدي

رواية

أحمد سلام

كيان للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

" وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى "

صدق الله العظيم

إهداء إلي..

أمي..

الأُمّية العَظيمة التي علمتني القِراءة والكتابة.

ثم.. أبي..

الذي جعل مني رجلًا رغم كل شيء.

وإلي..

سمر محمد..

المُخلصة التي تبوأت بداخلي مكانًا أبدي.

وكانَ بَعِدَ الله فضلكُم علي مشهودًا.

إهدائي الثاني..

إلي إخوتي..

نادر، وفاتن هشام.

وإلي إخواني..

محمد فتحي. حسام أحمد. فارس عادل. معتز القاضي. أسماء

محمود. ندي محمد. كريمة أحمد.

هدي حمدان. منى محسن. فاطمة محمود. علا عبد الفتاح

منال القاضي. منى القاضي. رحمة محمد.

وإلي صغيرتنا.. كينده أحمد الدسوقي ووالدُها.

وإلي المخلصون من عائلتي.

وشكر خاص إلي..

المحام والقانوني الأستاذ/ أحمد طلعت.

السيد/ فتحي بدر وأسرته الكريمة.

وإلي حدوتة للنشر والتوزيع

محمد ومعتز زهدي.

أُحبكم جميعاً.

المحتويات

النهاية

جميع الحقائق ما هي إلا أكاذيب ليست لها أن تُكشف الآن.

١

دائمًا هناك ذلك السوس الذي يقضم العصا: كي تنكشف الخديعة. بعد أمد.. غدًا.. اليوم.. سيحدث. لا تكلفوا أنفسكم عناء الأنتظار.

لا أعلم كم مر من الوقت وأنا على ذلك الوضع؛ ولم أسعى لفعل ذلك. في الصباح يغمر الضوء القادم من - النافذة التي يتراوح ارتفاعها عن الأرض من تسع إلى عشرة أقدام - بالكاد نصف الغرفة العلوي لفترة وجيزة من الوقت، لكنها كافية لإعادة نشر الدفء من جديد داخل المكان؛ وهو ما يجعلني أشعر أحيانًا بالامتنان لمن قام باختيار تلك الزنزانة لي أنها تناسبني تمامًا إذا ما تغاضيت عن رائحة العفن الممزوجة برائحة البول القادمة من علبة الدهان الموضوعة في أحد أركان الغرفة.

بادئ الأمر عزفت عنها طويلًا قبل أن أعلن رضوخي واتخاذها مرحاضًا لي، لا أتناول طعامي لكنني أبول أحيانًا، لا أعلم كيف؟ لكنه يحدث، إذًا هو أمر جيد.

***

يحدث مجددًا. تثاءبت في بطء قبل أن ينقشع المشهد تدريجيًّا. من أمامي تنسحب الزنزانة وتحل بديلًا لها غُرفة مكتبي كما عهدتُها، ساعة الحائط الخشبية التي توقف بندولها عن التأرجح؛ ليترك عقاربها أسيرة الساعة الرابعة والنصف، مكتبة تحوي عدة مراجع علمية جميعها تتعلق بالطب النفسي، بِالإضافة إلى أربعة مقاعد

وكنبة يكتسون جميعًا باللون البني، ومكتب خشبي عتيق تناثرت فوقه في فوضوية عده ملفات، بالإضافة إلى طقم مكتب يحمل لافتة نحاسية كُتب عليها باللون الأسود..

د/ يوسف محمد

طبيب عام

هذا أنا.

كهل في الثانية والثلاثين من العمر. تفوقت في جميع المراحل العمرية عامًا تلو الأخر. نبغت منذ الصغر في تعلم الإنجليزية. استطعت التحدث والقراءة والكتابة وأنا في السابعة من العمر، وحين بلغت العاشرة كنت قد تجرعتها حتى الإتقان كما يتقنها أهلها تمامًا، في الثامنة عشر حصلتُ على سيارتي الأولى كانت فيات موديل ١٢٨ صفراء لونها، مكافأة لي على تفوقي وطي المرحلة الثانوية كي تبدأ المرحلة الجامعية كانت مناسبة لشاب في العام ٢٠٠٣، عملت مترجمًا أثناء دراستي، لم أكن أبذل مجهودًا بدنيًّا شاقًّا، إكتسبت جزء لا بأس به من النقود جراء ذلك لم أكن في حاجة لها دومًا، وأيضًا لم أكن في حاجة إلى أن أُغدق داليا «نزوتي الجامعية» بالهدايا من أموال والدي؛ أموالًا أتت هباءً فلتذهب هباءً. تخرجتُ مِن جامعة الإسكندرية بتقدير عام امتياز مع مرتبة الشرف، حصلت في لمح البصر على دبلومتين في الطب النفسي وماجيستيرًا قبل أن أصل أخيرًا إلى درجة الدكتوراه. بعدما حصلت على الزمالة الفخرية لجامعه كامبريدج، كنت دومًا ذلك الطفل المثالي والشاب الخلوق، لا كذب

أو سرقة ولم أتجرع نيكوتينًا يومًا، كنت زيرًا للنساء؛ لكني لم أروي امرأة قط سوى زوجتي. من المؤكد أن شخصًا اجتمعت به كل تلك الصفات، لم يقتل بالتأكيد.

جميع الأشياء في مكانها المعتاد كما تركت من قبل، أيضًا حقائب سفري تقبع في الأرضية منتظرة سيدها كما تركها، إلا أنا لا أتذكر بأنني كنت في ذلك المكان قبل أن أغفو، ربما غفوت في مكان ما داخل المستشفي وقام أحدهم مشكورًا بنقلي إلى هنا ،لا أتذكر شيئًا سوى الذي تسبب في استدعائي من غفوتي، سحقاً للأماكن المغلقة. يومًا ما إذا ما قُدر وحدث بالفعل قد أظن بأنني ما زلت عالقًا في ذلك الكابوس، اعتدلت في مقعدي قبل أن أتوجه إلى علاقة الملابس وأرتدي معطفي؛ هكذا أفضل. إنه الأول من فبراير لا أستطيع مواجهه البرد القارص في الخارج إلا إذا كنت أريد قضاء أجازتي بأكملها حبيس السرير متناولًا حساء الخضار الدافئ، أفضل ألا يحدث.

فتحت حقيبة يدي أجمع أخر ما تبقى لي في ذلك المكان، جريدة اليوم الصباحية، علبة من البسكويت كنت قد التهمت نصفها. لا أتذكر ذلك أيضًا تبًا لضغوط العمل، أنا بحاجة ماسة إلى الراحة.

جمعت ما تبقى من أشياء قبل أن أتأكد من غلق الحقيبة ووضعها بجوار مثيلاتها، توقفت قليلًا أمام النافذة. أحببت دائمًا أن مكتبي يقع في الطابق الأرضي مواجهًا لحدائق المستشفي، هناك اختلاف اليوم فقد غمرتها مياه الأمطار، لم تتوقف منذ ليلة البارحة لتترك

بركًا من الماء والوحل في جميع أنحائها، وتتسبب في تلك الرائحة التي لها مفعول السحر على أنفي؛ رائحة امتزاج مياه الأمطار بأخشاب الأشجار، واحدة من الأشياء التي تجعل من فصل الشتاء المفضل لي.

ثلاث دقات على الباب أنه الروتيني الممل، أحيانًا أعتقد أنه إذا أخطأ وقام بدق الرابعة ستتوقف تروسه عن العمل وستحدث أُذنيه صفيرًا مدويًا قبل أن يُكتب في شاشة عيناه خطأ النظام، ومن ثم تتوقف الطاقة التي تمر في خلاياه بغتة قبل أن ينطفئا بؤبؤي عيناه و ينكب على وجهه في آلية محدثًا دوي اصطدام المعدن بالأرض، وبعدها يظل يُحدث حشرجة كلما تلامست أسلاكه قبل أن يسكن تمامًا عن الحركة.

لن أجيبه ولن يكررها مرة أخرى؛ سيقوم بفتح الباب ومن ثم الولوج إلى الداخل وهو يبتسم وكأنما حصل للتو على تصريح الدخول، يا لك من أحمق

تمامًا كما توقعت. دلف من الباب كائن يحمل من اللحم ما يكفي لأن تحتك قدميه في الأرض مع كل خطوة يخطوها، يرتدي بالطو الأطباء المميز باللون الأبيض ويتدلى منه كرشًا يزن عده أرطال له بروز سنام الأجمال، من الحماقة أنه حاول قفل الأزرار اليوم سينفجر عمًّا قريب، أكاد أن أجزم أن هذا اللعين يأكل بمرتبه الشهري بأكمله في اليوم الواحد.

طارق سليمان. طبيب أخصائي. رفيق بعثتي التي استمرت لأربعة

أعوام متصلة خارج الديار في سلطنه عمان. أربعة أعوام لا وجه إلا وجه طارق أراه صباحًا ومساءً. أربعة أعوام دون أن أُملي عيناي بالنظر في وجه ابنتي ذات العمر ذاته سوى يوم مولدها، دون أن أتواصل مع الشخص الوحيد المتبقي لي في ذلك العالم العريض المكتظ بالملاجئ لكنني لطالما نشدت الوحدة بعيدًا عن ملجأي الأبدي.

سمر..

لكل منا ثلاثة أوطان يولد في اثنين و يكتسب ثالثًا..

أم.. وطن غريب يجعلك في أوج الاحتياج دائمًا، ويذهلك بفيض العطاء.

أرض.. وطن يأخذ منك أكثر مما يمنحك.

سمر.. وطن يسكنك فتسكنه.

طالما أحببتها أردتها دومًا لنفسي منذ أن شبَّت أمام عيناي، صالت وجالت بخاطري. كتبت لها قصائد وقصائد من الشعر وهو الأمر الذي تناقض مع طبيعتي؛ أنا العقلاني دائمًا الفظُّ في تعاملي مع الآخرين، لكن ليس عندما يتعلق الأمر بها. في يوم الاحتفال بإتمامها للعام الثاني كنت في السادسة من عمري أتذكر جيدًا بأني قد رأيت الشمس تشرق من فمها، لقد أجزمت بذلك للجميع، لم أجد منهم سوى بعض القبلات وأتذكر ممازحة إحدى أقاربي ردًّا على ملاحظتي قائلةً:

ـ شمس اللي بتنور ولا اللي بترقص؟

ليضج من في المنزل جميعًا بالضحك. لطيف بالنسبة لعجوز مثلها، لم أبوح إلى أحد بسري منذ ذلك الصباح، قررت أن أنادي الشمس «سمسم» ولبثت في أنتظار شروق آخر.

على ما يبدو وأن «طارق» يستمتع بالمراقبة، أو أنه يتخذ أسلوب نعمل به نحن الأطباء النفسيون إعطاء المريض مبادرة الحديث ومن ثم تحليل حديثه والولوج إليه بناء على ما بدر منه من كلمات، مسكين كثرة العمل أربكته وبات يعامل الجميع على أنهم مرضى:

ـ أيه هتقعد تبحلقلي كتير؟! أنت جاي تتفرج ولا أيه ظروفك؟

نطقتها بلهجة عدائية خرجت تلقائيًّا قبل أن أردف محاولًا تخفيف حدة حديثي:

ـ قول بقى إن سيادتك جاي تنق عليا عشان يعني أنا أجازة وأنت مش هتشمها.

ـ حاجة زي كده.

قالها بنبرة ودية، دائمًا ما يدهشني برودة فعله؛ إنه الطبيب النفسي كما يجب أن يكون، يستطيع دائمًا امتصاص العداء الموجهة إليه والرد بألطف ما يملكه من كلمات، ربما كان هذا الأمر سبب عدائي له. الملاك المجرد من الخطيئة دائمًا.

ـ زي كده إزاي؟

ـ يعني.. قولت إنك هتوحشني فجيت أبص عليك قبل ما تمشي، وأشوفك لو محتاج مساعدة ولّا حاجة، يعني يا سيدي أعتبرني جاي أبحلق واطمن عليك، بلاش؟

ـ أنت إزاي كده؟

ـ إزاي إزاي؟ وضح.

قالها دون النظر إليَّ، فقط اكتفى بالعبث في بعض الأوراق على المكتب.

ـ إزاي مثالي أوي كده؟

ـ ده دوري يا يوسف.

غمغم بتأثير مسرحي، شعرت بأنه يريد إخراجي عن شعوري بتلك الكلمات وها قد فعلها.

ـ مع المرضى. صحت بغضب.

ـ إحنا كلنا مرضى نفسيين، أنا وأنت.

كان يشير بيديه إلى صدره قبل أن يفرد ذراعه و يشير إليَّ بعدها أشار إلى آخرين يقفون غير مرئيين عند النافذة وهو يكمل:

ـ وغيرنا، كلنا محتاجين الكلمة الحلوة، كلمة ممكن تقتل وكلمة ممكن تعيّش، سواء كنت مريض أو كنت دكتور.. فأنت إنسان وأنا إنسان.الكلمة الطيبة صدقة يا يوسف.

خيم الهدوء على الغرفة لم يقطعه سوى صوت اصطدام قطرات المياه بالنافذة في الخارج، أخذ عدة خطوات نحو أقرب مقعد قبل أن يجلس مراقبًا لوقع الكلمات عليَّ، هدأ تمامًا، إنه لا يمتلك بركانًا داخليًّا لا يثور ولا يغضب فقط يحب، نادرين من هم مثله تساءلت عن سبب العداء له ، إنه رائع.

ـ أنا آسف.. عااااارف.

لم أجد ما يمكنني قوله تلعثمت قليلًا، قاطعني قبل أن أتم جملتي:

ـ متبقاش خايب، كنت عاملك مفاجأة.

قالها ثم اتجه نحو مكتبي قبل أن يردف قائلًا وهو يضغط زر الاستدعاء.

ـ أتمنى تعجبك.

لحظات أخرى من الصمت، الأجواء في الخارج فضلت الكف عن إرسال المزيد من الأمطار سكنت الرياح وظلت تراقب في صمت، دقتان على الباب.

ـ أدخل. أجاب طارق.

دلفت من الباب «الفاتنة». تمتلك «سارة» قوامًا اجتمع أشهر فنانين العصور الوسطى من أجل العمل عليه، نُحت بعناية فائقة من أجل إظهار تلك المنحنيات المتناغمة في واحدة من أكثر اللوحات تعقيدًا في تاريخ البشرية؛ إنها «سارة» فحسب. الممرضة التي يفوق تأثيرها جرعة كاملة من عقار الـ lidocaine المخدر الموضعي بسيط المفعول إذا ما قُورن بها، والتي تتسبب دائمًا في جلب المزيد من المرضى للمكان ، إنها تسبب الجِنان أينما خطت بتلك الساقين المخروطيتين الشكل.

ـ قوليلي يا سارة.. أنتي بتحطي مناديل فوق؟!

أخرجتها وأنا أتفحص قوامها مفتونًا.

رمقتني سارة باشمئزاز، أجبتها بغمزة، لو أوتيت الفرصة لقتلي الآن ما تهاونت قط، استدارت لتفتح الباب و يا ليتها ما فعلت.

أتت عدالة السماء باكرًا، على الجانب الآخر من الباب ظهرت «سمر»، ما أن تقابلت نظراتنا خانتها قدماها تسمرت في مكانها، فقدت الشعور بأوصالي، انسحب بهدوء طارق من المشهد خارجًا دون أن ينبس ببنت شفة مصاحبًا لسارة، تقدمت سمر خطوات إلى الداخل أغلقت الباب خلفها، حدث كل شيء سريعًا لا أتذكر من التفاصيل سوى إننا اتحدنا في عناق ضربت حرارة موجاته الأخضر واليابس من حولنا؛ لتترك العالم يشتعل حولنا، كلما زاد الاشتعال زاد تجمدنا أحدنا بالآخر.

عناق دام أربعة أعوام. تجرعت من شفاها سنوات وسنوات من الشقاء بعدد سنوات أعمارنا مجتمعة. وبكت. وبكيت، وكما تعانقنا فجأة انفصلنا. لم أقوى على النظر إليها كمن ارتكب وزرًا، فقط كما فَعلْتُ فَعَلَتْ. لم أبك قطّ من قبل، ولا أقوى على رؤية تلك العينان تدمعان دون المشاركة.

***

كانت في عامها الجامعي الأخير كبرت أمام عيناي صارت تغدو مراحلها العمرية مرحلة تلو الأخرى، إلى أن شبَّت وأصبحت عروسًا وها هي على وشك التخرج. وبرغم بعد المسافة بين منزلنا في الإسكندرية ومنزل خالتي في محافظة الإسماعيلية، إلا أنني لم أجد ملاذًا أستشعر الراحة به بعد وفاة جميع أفراد أسرتي في حادث

ـ نعم!!

ـ ولا تحت..أقصد يعني مش أنتي اللي محضره شنطتي؟ أكيد بتحطي مناديل.. صح بتحطي.. صح؟

أرتفع حاجبها الأيمن قليلًا وهي تنظر نحوى نظرة قادمة من أعماق الجحيم قطعت الشك باليقين، لقد استشعرت فحوى مغازلتي، ما الذي ستفقده إذا ما أثبتت لي خطاء ادعائي.

ـ بس فيه مناديل.. مش فوق بس كمان وأدي الجمل وأدي الشجرة.

أشرت نحوها بيدي. أخيرًا تغلب طارق على موجة الضحك التي أنتابته ليقاطع حديثي موجهًا الحديث إليّ:

ـ الله يحرقك يا شيخ.. أبقى أشتري مناديل من بره محبكتش يعني، معلش يا سارة، روحي...

ـ أصل أنت مش فاهم، أنا وأنا في الكلية كان فيه واحدة أعرفها كده معرفة دكاكيني.. داليا ما أنا حكيتلك عليها..كانت يا سيدي معندهاش حاجات فـ.... حاجات كده فكانت أيه بقى.. بتجيب مناديل وتحطها وقال يعني.. هه.. فاهم أنت! تخطب الواحدة من دول وهوب ليلة الـ .....

انفجر ضاحكًا قبل أن يتملك رابطة جأشه من جديد:

ـ بس يخرررربيتك، روحي يا بنتي روحي، الله لا يسيئك.. دخلي المدام.. يخربيت فقرك يا أخي.

ـ الله!! بجوّد.. هو لا نطوله ولا نتحاكى بيه.

مأساوي وأنا لم أتمم الرابعة عشر من العمر بعد إلا هناك، سافرت خارج البلاد بعد حادث الوفاة مباشرةً وعدت وأنا في عامي السادس والعشرين، لأجد زهرتي في ربيعها الثاني والعشرين، لبثت في شقة يتملكونها أيضًا في نفس العقار أشهُر معدودة إلى أن أتت الرياح بما لا تشتهيه السفن.

في صباح ذلك اليوم استيقظت على النغمة الصادرة من هاتفي المحمول قبل أن أجيب:

ـ ألو.

خرجت بصوت غالبه النعاس.

ـ أيوه يا يوسف، أنا سمر.. رصيدي خلص وبكلمك من تليفون في الشارع، مستنياك كمان ساعة في ليالي الشام، فيه كلمتين عايزة أقولهم قبل ما أروح البيت.. سلام.

كانت نبرتها تختلف كثيرًا تحاول أن تتماسك، ولم تعطني الفرصة للحديث تأجيلًا للحظة الانهيار.

***

جلسنا طويلًا كلانا يراقب الآخر في صمت، أتى النادل بكاسين من الجيلاتي المثلج وضعهما على الطاولة أمامنا قبل أن ينسحب، استفاقت من شرودها وبادرت بالحديث:

ـ كنت حابه آخد رأيك في موضوع كده.. مش عارفة بالظبط.

لم تكن تنظر إليّ، أصبحت يدها مشغولة في اللهو بالملعقة في الكأس

الموضوع أمامها دون أن تتناول منه شيئًا.

ـ بس.. يوسف أنا فيه حد كلمهم في البيت وجاي النهارده عشاني.

تنهدت وهي تكمل.

ألجمتني محاولة تخيل الأمر، جميع جنودي تحطمت في المعركة، والآن العدو من أمامي والعار من خلفي لا مفر سوى الصراع، حاولت أن أنتقي كلماتي بقدر المستطاع قبل أن أجيب حديثها:

ـ والله !! كويس.. وأنتي أيه رأيك.

راقبتها لم أزح نظري عنها، لكنها ما زالت لا تريد النظر:

ـ هوافق.

تحدثت بانفعال.

ـ إزاي يعني توافقي.. وأنا!!

ـ أنت مش معيشنا دور الأخوات. وأخويا الكبير اللي بتخاف عليا. حتى بيني وبينك أخوات لدرجة إني صدقتك.

ـ تمام.. ولما أنتي صدقتيني طلبتي نتقابل بره البيت ليه؟ عشان تقوليلي؟! مستنتيش لما يجي البيه وأشوفه ليه ؟؟

كان الغضب قد بلغ منتهاه. قُصفت جبهاتنا خسرنا نحن الاثنين المعركة، أصبحت الأوراق مكشوفة والنوايا بينة، لا مزيد من الثرثرة، وما خسرنا كل شيء إلا لكي نربح كل شيء، ربحنا أنفسنا.

***

أنتهي اللقاء، وغادرنا وما أن دلفت إلى المنزل حتى أخبرت الجميع

برفضي لذلك الشخص، حدثت مشاحنات بيني وبين والدها دامت لأيام تبعتها شهور ، تركت المنزل وعدت إلى الإسكندرية، قمت بتجهيز عش الزوجية، لم أحصل على موافقتهم بعد ولكنه سيحدث و إن كلفني الأمر محاربة الجميع.

تفننت سمر في رفض جميع من تقدم لها، عوقبت وامتنعت عن الطعام وتحملت الأذى الجسدي، لا أخفي سرًا لم أكن سأظفر بالنصر إن لم يكن لي حليف جاثم خلف أسوار العدو، وأخيرًا استجاب والدها مرغمًا إلى رغبتنا وبارك زواجنا، أقيم حفل زواجنا في القاهرة وسط مباركة الأهل والأصدقاء.

أنتقلنا إلى الإسكندرية للإقامة في الشقة التي ورثتها عن والداي، مرت الشهور وأتت بالخبر السعيد أخبرتني سمر بأنها حامل. في الثاني والعشرين من شهر يوليو من العام ألفان وإحدى عشر أتت «يارا» حملتها مرة واحدة بين يداي قبل أن يأتيني استدعاء وزارة الصحة من أجل البعثة المتوجهة إلى العاصمة الأردنية عمان، وكنت أنا على رأسها برفقة دكتور «طارق» لم أراهما طوال الأربعة أعوام، لم أرَ «زهرتيَّ» إلا الآن، بعد انقضاء أعوام عجاف مرت أضعاف مما هي عليه.

***

كنا نجلس في مواجهة بعضنا البعض فقط نتبادل النظرات منذ أن انفصلنا عن العناق، لم يقوى أحدنا مبادرة الآخر بالحديث، جلست شاردة بالنظر من النافذة. كانت عيناها عشقًا لا ينتهي جلست شاردًا

أيضًا وأنا أنظر إليهما، ثلاث دقات على الباب من جديد، لم أجيب، كررها طارق مرة أخرى. يستطيع التحلي بالذوق وقتما شاء.

ـ أدخل.

ـ أحم أحم.. أعذروني هاكون متطفل وأطردكم برة.. الأجازة بدأت ولا هنقضيها هنا.. أيه حكايتكم؟

لم تفلح محاولته في تلطيف الأجواء، قمت من على مقعدي متوجهًا نحو المكتب موجهًا الحديث إليه:

ـ دكتور خالد مش هيجي يسلم عليا برضه؟

حملت مظروفًا من على مكتبي، بعدها التفت لتقع عيني على أغرب مشهد شاهدته اليوم، طارق وسمر ينظران لبعضهم البعض في قلق من أثر كلماتي:

ـ فيه أيه؟ نطقتها بغضب شديد.

ـ مفيش بس أنت عارف يا يوسف إنه مشغول. أجاب طارق.

ارتفع صوتي بالحديث في غضب:

ـ متحاولش تكدب.. أنا فاهمكم كلكم.. هو زعلان مني.. وأنت بتحاول تحسن موقفه.

ـ يا يوسف، أفهم بقى.. أنت مين وافقلك على الأجازة غيره.. دكتورة «كريمة» بجلالة قدرها معرفتش تاخد أجازة زيك واهي رئيسة قسم.

ـ مش عايز أفهم أنا.. مش عايز أفهم.. مش عايز.. أنا آخر جواب

هبعته لازم يرد عليا.. لازم يا طارق.. أنت فاهم!! لازم.

ثارت ثورتي، اتحدا طارق وسمر في محاولة التهدئة من روعي، استنشقت أنفاسي قليلًا قبل أن أُخرج الخطاب من جيب معطفي وأمسكت بقلمي؛ لأكتب على ظهره بخط رديء تحكمت في جودته الرعشة التي انتابت أوصالي من أثر موجة العصبية التي أصابتني للتو:

«يسلم إلى يد

د/ خالد محمد منصور

مدير عام مستشفى العباسية للصحة النفسية

عقار ٨٢٤ طريق الحرية – رشدي – الإسكندرية»

نظرت من النافذة، كانت السماء تنذر بالمزيد من الصقيع اليوم أيضًا كان هناك فال سيئ؛ فالغراب صديقي ليس بالأعلى. أتى الساعي وأخذ الحقائب إلى السيارة، تودعنا أنا وطارق وداعًا حارًا، تشابكت يدي بيد سمر واتجهنا نحو الباب قبل أن تحن مني التفاتة نحو طارق الذي ما اطمأن أنني غادرت حتى أدار لافتة المكتب مُخفيًا اسمي مُظهِرًا:

«د/ طارق سليمان

طبيب أخصائي»

يا لك من أحمق، استمتع سوف أعود قريبًا..

***

٢

ما إن تجاوزت الرينو البوابة الخلفية التي مُيزت بلافتة زرقاء كُتب عليها باللون الأبيض مستشفى العباسية للصحة النفسية، واستقرت على الطريق الرئيسي حتى ازدادت سرعتها تدريجيًا، التقطت سمر علبة سجائر موضوعة على التابلوه أمامها، استخرجت منها واحدة وألقتها بلا اكتراث مكانها، تجرعتها كاملة دون أن تتفوه بكلمة، ظللت أراقبها في صمت وكأنما عبرت للتو أمام شاشة للفحص، كانت حالتها الجسدية تنذر بالسوء ويظهر جليًا بأنها قد فقدت الكثير من حيويتها في الأيام الماضية، يبدو أيضًا بأنها قد سهرت ليال معدودة، هكذا توحي تلك البقعة السوداء أسفل عيناها، كانت وجنتيها شديدة الشحوب تبرز العظام على جانبي فكها، أشياء جعلت منها هيكلًا عظميًا يكتسي بالجلد البشري له القدرة على الحركة وإن كانت حركة رتيبة أقرب إلى أن تكون آلية عن كونها بشرية، لكنها ما تزال جميل كما رأيتها دومًا. مرت قرابة الساعة وأنا على ذلك الوضع أراقب وهي لا تكترث بشيء سوى الطريق والتدخين. تناولتْ سيجارةً أخرى قبل أن تستهل الحديث:

ـ هتفضل ساكت كده؟؟

ـ أنتي من أمتى بتدخني!

ـ مش فاكرة بالظبط.. بس تقريبًا من ساعة ما سيبتني. فاكر؟ القهوة.. السهر.. السجاير.. مش فاكرة بدأت منين بالظبط.. بس

بدأت.

أنهت جملتها وهي ترمقني بنظرة جامدة خالية من التعبير، يبدو و إنها على استعداد تام لصفعي الآن.

ـ ممكن تركزي في الطريق.

لم يكن يشغلني الطريق، فقط كانت حاجتي بأن تصرف نظرها عني للحظات أداوي جرحاي قبل استئناف القتال من جديد، وعلى ما يبدو أنها كانت رغبة مشتركة فيما بيننا أشاحت بوجهها، قبل أن أردف:

ـ سمر، أنا مسبتكيش، أنا طول الأربع سنين عايش بتعذب...

ـ بس عايش. قاطعتني.

أغرقت عيناها بالدموع وهي تنظر نحو النافذة.

ـ سمر.. أنا بحبك.

ـ أوعدني إنها آخر مرة.

ـ سمر..

ـ أوعدني.

لم تقوى على المقاومة أكثر من ذلك استسلمت لفيضان من الدموع أغرق وجهها قبل أن تكمل:

ـ صعبة عليك دي؟؟

مددت يدي نحو يدها التي تمسك عجلة القيادة أمسكتها ببطء مطمئنًا:

ـ أوعدك.

نطقتها قبل أن أترك يدها خالية من السيجارة التي أصبحت بين أصابعي الآن، ألقيتها من النافذة.

ـ أول وآخر مرة أشوفك بتعمليها.

لم تأت إجابتها، فقط تركت عجلة القيادة وتشبثت بعنقي ومن ثمَّ اشتبكت معي بقبلة مجنونة استمرت لثوان، ولكن أثرها دام لدقائق قبل أن تعود إلى الطريق مرة أخرى، لقد كانت بحاجة ماسة إلى جرعة من الاطمئنان.

ـ في الكرسي اللي ورا فيه هدية لِيارا منك، عارفة إنك نسيت بس أنا عملت حسابي.. مينفعش بابا يجي من السفر من غير هدية.. يارا ذكية وعندية جدًا.

ـ هتجيبه من بره.

تجاهلتني.

ـ بتاخد وقت على ما تندمج في الجو اللي حواليها.. إحنا دلوقتي هنطلع على الإسماعيلية هنتغدى مع بابا وماما مش هنبات.. وبعدين ناخد يارا ونروح على إسكندرية.. عايزة أبقى معاك كتيييييييير أوي لوحدنا.

***

شغل حيز تفكيري شيء واحد طوال الطريق ، لا أعلم حقًا لما الرفض إنه الخامس عشر بعد المائة، الأمر المعتاد «د/ خالد مشغول،

ما أنت عارف يا أخي»

ألفت الرد الذي اتفق عليه جميع من حولي، فليظل مشغولًا، عقدت عزمي على زيارته في العيادة الخاصة به عندما أصل إلى الإسكندرية، لديه بعض الأجوبة، كان هو الصديق الأقرب إلى والدي. يعلم عن الحادث تفاصيل لا يعلمها أحد سواه، لم تكن محاولة للسرقة فقط لقد كانت جريمة قتل مدبرة، كانت تستهدف إجباره على تزوير تقريره بخصوص أحد المرضى من عائلة ذات نفوذ يبدو وأن محاولة الإجبار باءت بالفشل، وكُللت بجريمة قتل نجوت أنا منها بأعجوبة شديدة كي أكمل دربه في مجال الطب النفسي، هكذا أخبرني دكتور خالد. قام بمساعدتي في الحصول على الوظيفة ومن ثمَّ البعثة تفضيلًا على من هم أحق مني بذلك. عدت بعد انقضاء أعوامها؛ لأجده قرر التهرب من مقابلتي مرارًا وتكرارًا.

***

وصلنا إلى الإسماعيلية بعد أن وضعتني سمر نُصب الحدث، أخبرتني المزيد من الأمور التي قد حدثت طول الأربعة أعوام المنصرمة، بداية بزواج أختها «فاتن» من أحد رجال الشرطة منذ ما يقرب من العام وها هي في انتظار مولدها الأول. نهاية بأننا قد عاصرنا ثورتين، ومحاكمتين للحكام، وحاكمين جدد، وإننا على وشك معاصرة قناة ملاحية أخرى بخلاف قناة السويس، وعاصمة جديدة. وأن الكهرباء باتت تقطع مرتين في اليوم الواحد. تبًا هل غبت كل هذا الأمد؟!

****

كانت لمسة سمر حاضرة، برغم ضيق مساحه الشقة إلا إنها كانت تبدو أكبر حجمًا في أثاثها الحديث، استُبدل طقم الأنتريه العتيق بركنه حرف L أمريكية، ومجموعة من المقاعد المكملة لها باللون الأزرق المطعم بالأبيض، وسفرة أقل حجمًا من سابقتها تقبع بانسيابية شديدة مع باقي الأثاث في إحدى زوايا الصالة بجوار نيش يحتوي فقط على الكريستالات، وعلى الحائط تتدلى ستائر باللونين الأزرق والأبيض في تناسق مع ألوان الأثاث، أيضًا هناك صورة كبيرة في إطار مُذهب في المنتصف تمامًا للزعيم الراحل «جمال عبد الناصر» يقف مرتديًا لبزة عسكرية بنية اللون مزينة بكميات من الأوسمة والنياشين تكفي لملئ دولاب مكتبي عن آخره. تخيلت أنه كان يحارب وحده قبل أن أفكر إن كانت هذه نياشين حرب لكانت سحبت منه في حرب ٤٨. كان الشاذ في المشهد فقط تلفاز كبير الحجم من مطلع الألفية الجديدة تم الإبقاء عليه ولم يبدل بأخر من الشاشات الحديثة أعلى منضدة للتلفاز بها مجموعة من الأجهزة الإليكترونية أيضًا ترتبط بالماضي. هذه لمسة زوج خالتي. لديه ولع بالأشياء النادرة. بالتأكيد رفض أن تطأ قدم العمران ذلك الجزء من الصالة.

اللقاء كان رائعًا، كان أقرب ما يكون إلى احتفال أُسري صغير. تناولنا الغداء. جلسنا جميعًا نتابع التلفاز الأثري، أخبروني عن هذا اللاعب وكيف أنه لعب بصفوف أحد أكبر الأندية الإنجليزية قبل أن يخرج معارًا إلى أحد الأندية الإيطالية، في المساء فاجأتنا «فاتن» بإعداد قالب من الحلوى مغطى بالشيكولاته زينته وكتبت عليه:

"٢٠١٥/٢/١، بداية جديدة"

احتفلنا جميعًا، عزفت بصعوبة شديدة عن تناول الطبق الخامس من الجيلي بعد أن برز لي كرشًا في حجم البرتقالة، لا أريد أن تتضخم تكفي تلك الثمرة، بيني وبين الحلويات عشق لا ينتهي، تسامرنا كثيرًا أنا وحسام. كان ذا قوام ممشوق، وسيم الملامح، جاد القسمات، يضحك قليلًا، إلا أنه مرح ويمتلك قدرة رائعة على لفت انتباه الجميع إليه، يمتلك قدرًا كبيرًا من الاتزان، إنه بالطبع مناسب تمامًا لذلك المنصب الذي أخبرني عنه؛ «رئيس مباحث» قسم شرطه الزقازيق، أيضًا أخبرني بأن الهواتف أصبحت أكثر تطورًا عما كانت عليه فيما مضى، وكيف أصبح بإمكاننا أن نتعامل فقط مع الشاشة التي تعرض دون الحاجة إلى ضغط المزيد من المفاتيح الملموسة، أهداني جهازًا كان قد ابتاعه خصيصًا لأجلي. إنه واحد من الشخصيات الرائعة في هذا المساء المكتظ بالروائع.

إنها الأمسية الأفضل لي على الإطلاق. أعلموني بأنهم فضلوا أن تأتي «يارا» في وجودي لا أن يحدث العكس، يرهبها وجود الأغراب وستجد صعوبة في تقبلي، أزعجتني تلك الفكرة لكنني تقبلتها شئت أم أبيت هي طفلة، لقد أخبروها عني كثيرًا وعلمت منهم بأنني قادم، أصرت على أن ترتدي اليوم، «الترنج البينك بتاع العيد».

على حد قولهم، أرسلوها بصحبة جارتهم وأبنائها الذين يتدرجون في نفس المرحلة العمرية أثناء زيارتهم إلى إحدى مدن الألعاب الترفيهية منذ الصباح، وإنها على وشك الوصول.

***

حين أتت الملاك، كانت قد عقصت شعرها على شكل ذيل حصان وتتدلى منه بعض الخصلات تسترسل على وجنتيها شديدتي الصغر، إنها نسخة مصغرة من سمر، لم أشعر بنفسي إلا بعد أن سرقتها إلى داخل ذراعيا، كيف أمدتني تلك الصغيرة بتلك الراحة الأبدية؟ لو أن الغربة لها مقابل. عناق الجنة، لتغربت العمر بأكمله. لم تبادلني نفس الشعور، فقط استسلمت ولم أكن أتوقع منها سوى ذلك، وأخيرًا تركتها تنزلق من يدي دون أن أصرف نظري عنها، سألتني:

ـ أنت أسمك أيه؟

أخرجت الحروف بإيقاع موسيقى عذب، جاوبتها على الفور:

ـ قولي أنتي أسمي أيه.

زفرتْ في ضيق شديد قبل أن تقول:

ـ أسمك أيه ؟

ـ يوسف محمد. امتثلت لها تمامًا.

ـ صح.

أخرجتها بعد أن تأكدت من كوني لست بمنتحل:

ـ تعرف مس هدى؟ أضافت.

كان الجميع يراقبون بصمت وعلى ما يبدو إنها تمتلك فعلًا ذلك الذكاء الذي أخبروني عنه وقد تفوق ما تخيلته أيضًا، فهي تسعى إلى اكتشافي بنفسها لم تنتظر أن أكشف لها عن نفسي.

ـ لا.. أنتي تعرفيها؟ جاوبتها سائلًا.

ـ الله.. هي المس بتاعتى أصلًا.. بص.. أنت المفروض يعني توديني كل يوم كل يوم الكلاس وتيجي تاخدني.. وكمان فيه مصروف مش تنسى.. و اااااا...

كانت تعد على أصابعها وهي تحدثني، ظلت شاردة قليلًا، تركت لها المجال كي تأتي بجميع ما في جعبتها، نظرت لي سائلة:

ـ أنت المفروض بتحبني عشان أنت تعرفني من ساعة ما أنا كنت نونة، صح؟

ـ صح.

ـ أنا بقى مش شوفتك وأنت نونة عشان كده مش هحبك غير لما تلعب معايا بالشيكي دودو.

ـ أكيد طبعًا.. ده العدل، بس أيه الشيكي دودو ده؟!

ـ يوه.. أنت مش عارف أي حاجة خالص كده.. شكلك هتتعبني معاك.. دي عروستي، وحبها عشان بتزعل وبتعيط.. أنا كده خلصت.. ممكن أروح أغير هدومي ؟ تحدثت بحنق.

ـ طبعًا.. بس ده بعد ما تنفذي طلبي.

ـ عايز أيه؟

ـ أكبر بوسة وأكبر حضن عندك.

جرت نحوي قبل أن تمنحني جرعة مكثفة من السعادة، أحاطت ما استطاعت أن تصل إليه بذراعيها من جسدي وقبلتني أروع قبلة مرت على وجنتاي على الإطلاق. قبل أن تتركني. قائلة:

ـ صح كمان.. أنت بابا وأكبر من ماما.. قولها إن «لالا» تلبس الترنك البينك.. وهي تسمع الكلام.. عشان أنت كبير.

التفتت نحو غرفتها؛ لتتركنا جميعًا في نوبة من الضحك الشديد. لم أكن أتوقعها هكذا على الإطلاق. لم أكن أتوقع أن أرى جزءًا مني ينبض بالحياة أمامي، لقد عوضت للتو عن جميع أيام شقائي السابقة. ابتسمت لي سمر، ابتسمت للجميع. ضحكت حماتي:

ـ البنت دي طالعة مصيبة.. روح روحي المجرمة.

***

دعاني حماي لتناول القهوة في الشرفة. ما أن أصبحنا بمفردنا حتى استهل بالحديث عن الوضع الأمني الداخلي للبلد. وانتشار البلطجة. والعنف المنهج والغير ممنهج. تركته يلقي إليّ السنارة وجلستُ أُراقب الطُعم عن كثب، كنت أعلم ما يرمي إليه جيدًا. كان بإمكانه إخباري مباشرة عن رغبته في مكوثنا هنا فضلًا عن ذلك الحديث الذي يحاول التملص منه إلى هدفه. أقرب مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم، أؤمن بذلك. أطال في حديثه كثيرًا، ومن ثم تطرق إلى الحديث عن البن المحوج الذي نتناوله وكيف أنه يذهب خصيصًا لكي يبتاعه من مدينه التل الكبير لما له من نكهة غنية، وهو الأمر الذي يكلفه بعض الأموال الإضافية لكنها لا شيء يذكر أمام نكهة غنية مثل تلك النكهة.

ـ مش هتلاقيها في أي بن فيكي يا بلد، حتى لو روحت البرازيل ذات نفسها. دوق كده.. دوق. أعلن في فخر.

أمسك فنجانه وارتشف منه قليلًا، أمسكت فنجاني بدوري وتذوقته، لم يكن بتلك الصورة الخيالية التي ظل يصفها لي، لم أشعر بأنني قد تناولت سوى القهوة ليست رديئة ولم تكن مميزة، إنها جيده فحسب، ترك مقعده ومن ثم دعاني إلى الوقوف بجوار سور الشرفة والتطلع إلى المنظر الذي تطل عليه؛ فهي تقع على مقربة من «نمرة ٦». من هنا يمكننا رؤية المعدية التي تنتقل ذهابًا و إيابًا بعرض قناة السويس للربط بين محافظة الإسماعيلية ونصب الشهداء في الجهة الأخرى للقناة، أيضًا بين الحين والآخر تمر السفن الضخمة التي تعبر المجرى المائي يوميًا، حتى أتى ما في جعبته أخيرًا.

ـ أحسن حاجة في الإسماعيلية إنها تعتبر منطقة جيش.. عارف مفيش حد يقدر يهوب ناحية هنا.. أيييييه.. ربنا يكون في عون أهل المحافظات التانية خصوصًا القاهرة و إسكندرية. قالها مبادرًا.

ـ رب هنا رب هناك يا عمي. غمغمت.

ـ ونعم بالله.. بس أنت ماقولتش بقى أنت ناوي على أيه؟

تركت فنجاني على الجدار بجواري ومن ثم شردت قليلًا مراقبًا المياه:

ـ قولي يا عمي، قدامنا كده قناة السويس بعدها سينا.. بعد سينا والحدود فيه أيه ؟

أنتظر ثوان معدودة حتى تأكد بأنني لن أضيف، كان متعجبًا من السؤال لكنه أجاب:

ـ فلسطين.

ـ إجابة مش دقيقة بس خلينا نقول فلسطين.. فلسطين دي يا عمي مرتاحة مع إسرائيل؟

ـ ولا هترتاح غير لما ربك يأذن.

ـ ونعم بالله.. طب إسرائيل مرتاحة مع فلسطين؟! سألت وأجبت. برضه لأ.. محدش بيرتاح غير في مكانه يا عمي.

ـ أنت عايز تقول أيه يا يوسف يا ابني؟ دول أعداء ودي أرض، إنما أنتم عيالي والشقة اللي أنت كنت قاعد فيها وأنت عازب.. شقة سمر مراتك.. الصبح تكون مفروشة و...

قاطعته في حزم قبل أن يتم حديثه:

ـ وشقتي موجودة في إسكندرية وفاضية، هكون واخد راحتي هناك أكتر.

ـ هترجعم تاني لعمارة العفاريت يا يوسف يا بني؟ وبنتك؟

ـ ما عفريت إلا بني آدم.. وبعدين ده كلام عشان محدش يقربلها وهي مقفولة.. ما أبويا وأمي فضلوا فيها، وقعدت أنا وسمر سنة وزيادة فيها محصلش حاجه.

ـ الوضع اختلف دلوقت.. الكلام كتر عليها.. وبعدين أنت نسيت إن بقى معاك طفلة؟

ـ طفلتين.

قولتها مصححًا، ثم استكملت قائلًا:

ـ أنت نسيت إن سمر بنتي زي ما هي بنتك.. أنا مش هغامر بآخر

حاجة بقيالي فالدنيا.. أنا سمر هي اللي بتخليني أعيش.

اقترب مني قليلًا وربت بيديه على كتفي مستسلمًا:

ـ والله ما عارف أقولك أيه يا ابني.. يا رب تكونوا بخير.

ثم أكمل دون أن يسحب يده من على كتفي:

ـ مقولتليش بقى أتعلمت أيه بره.. طول الفترة دي.

امتد الحديث بيننا قليلًا، تناولنا فيه بعضًا مما أنتوي فعله مستقبلًا. وأنهينا حديثنا بوعدي له أن نظل بخير دائمًا.

***

في العاشرة مساءً دعاهم حسام جميعًا للعشاء في الخارج وحضور حفل منتصف الليل في إحدى دور العرض، ثم أشار إليَّ أنا وسمر:

ـ أنتم مش معزومين.. الشقة اتبهدلت بسبب احتفالنا بيكم، اقعدوا كده بقى مع بعض روقوها على الآخر، هاه.. روقوها.

كانت محاولة رائعة لتركنا بعض الوقت بمفردنا، أرواحنا بحاجة إلى الراحة، حرصت يارا على توديعنا ببعض القبلات قبل أن ينصرفوا جميعًا.

ما إن أُغلق الباب خلفهم حتى انقضت عليّ. لم تمهلني الكثير من الوقت للتفكير فقط فعلتها، لقد دقت ناقوس الحرب بنفسها وعليها تحمل جميع العواقب، كان الشبق حاضرًا فيما بيننا اندلعت نيران يحرق النيران لفحها، لم نتداعب كثيرًا. أغرقتها تقبيلًا. وارتشفت من أريجها عطرًا ثملت منه، قطعت الطريق صوب الهدف مباشرةً،

صعدت هضابًا ودنوت سهولًا مرورًا بصحراء أبار مائها تقطر شهدًا، رمالها صفراء ملساء شديدة النعومة تجذب إلى داخلها العتاد بلا هوادة، حاربت. كدت أن أُهزم إلا أن رسولي رأى مشارف أسوار مدينتها تشبثت بالحياة من جديد، قضيت على جميع خنادقها، لم يكن الطريق ممهدًا، ولسوء حظه فقد كنت من هواة المخاطرة على الطرقات الوعرة. في سبيل الحياة يموت الرجال.

ارتجفت أمامي من الإنهاك وأصابها الإعياء، أنه الوقت المناسب تمام كي نقوم بالاقتحام. راودتها قليلًا قبل أن تستسلم لجحافل الغزاة التي على وشك دكّ أعتا حصونها تأمينًا، كانت جنودي على أهبة الاستعداد. آن أوان النصر.

عتّقنا الخمر أربع سنوات وحان الأوان كي نرتوي.

***

كانت درجه الحرارة تقترب من السبعة درجات مئوية، وهو ما تناقض تمامًا مع توقعات طقس اليوم الذي خرجت به نشرات الأخبار ليلة الأمس، هؤلاء الكسالى يتوقعونها يوميًا أربعة عشر درجة، متى يكلفون أنفسهم عناء قياسها حقًا؟

حُجبت الشمس تمامًا خلف الغيوم الممتدة في الأفق على مدى البصر، فرغنا جميعًا من تناول طعام الإفطار كان المنزل يدب بالحيوية، الجميع يتحركون، ظل حماي وحماتي يهندمان يارا. عقصا شعرها الذهبي الجميل وألبساها معطفًا من الفراء وبعد أن فرغوا من تجهيزها دأبا على تدليلها واللهو معها، استشعرت بأنهم لا يريدون

فراقها، تعاونتا فاتن وسمر على حزم حقائبنا ومن ثم تشارك معي حسام في حملها إلى السيارة، كان الوداع سريعًا بعض القبلات، الكثير من العناق والأكثر من البكاء أخذت حماتي نصيب الأسد منه.

جلست سمر خلف عجلة القيادة، وجلست أنا بصحبة يارا في الخلف، يأخذ الطريق عادة نحو الست ساعات، إنها فرصة سانحة للتقرب أكثر منها، وأيضًا لم أكن أستطيع القيادة. لا أحبها ولا أريد تعلمها، فقط أعلم الطريق جيدًا صوب «عماره العفاريت».

***

٣

عمارة رشدي، أو عمارة العفاريت كما يحلو للبعض أن يطلقوا عليها. تلقت هذه التسمية صدى واسع الانتشار بين الجميع. ما أن تمر بها حتى تجد من يقص عليك عشرات القصص عما فعله الجن بأُناس سكنوها. بداية من قصة العروسين اللذين وُجدا عراة بجانب حطم من الأثاث على الطريق صباح ليلة زفافهما، وكأنما قام العقار بلفظهم جميعًا تارة واحدة إلى الخارج. مرورًا بضابط الشرطة الذي قرر المكوث في المكان قبل أن يُقتل. نهاية بالشيخ الذي ما أن خرج من المكان حتى فقد عقله. ناهيك عن ادعاءات الجيران بسماعهم أصوات تصدر من الدخل في المساء. هذا الرائج بين الجميع، لن أجزم بمدى صحته. لقد قضيت قرابة الستة عشر عامًا هنا منهم أربعة عشر عامًا طفلًا، لا أتذكر بأنها كانت طفولة سيئة، أو بأنني قد شاهدت أحدًا من الجان يقف على المقود في المطبخ يتناول طعامه من الأواني أثناء نومنا. أحيانًا كنت أسمع أصوات تحرك الأثاث فقط، أخبرت والداي لكنهما لم يباليا كثيرًا ظنًا منهما بأنه قد يكون أحد من الجيران. اقتنعت بذلك. قضينا أوقات طيبة قبل أن يلقى والداي حتفهما في جريمة قتل بشعة شهدها العقار نفسه، مرت الأيام بعد تلك الحادثة لكنها كانت واحدة من الأسباب التي أدت إلى تقوية الموقف العفريتي للمكان. عدت شابًا بعد مرور أثنى عشر عامًا بصحبة زوجتي، مكثنا قرابة العام والنصف في سلام ورُزقنا

بفلذة أكبادنا يارا قبل أن اضطر إلى السفر في بعثة إلى الخارج، وها نحن نعود مرة أخرى.

حقيقة لا أعلم سر تخوف الجميع من ذلك، لم نرى شيئًا هنا من قبل، فقط أقاويل يرددها البعض، ربما كانت شائعات أطلقت فيما مضى لإبعاد المجرمين عن العقار الذي لا يسكنه أحد سوانا، وحارسًا بصحبة عائلته يحرسون الجراج في الأسفل الذي يعمل بكامل طاقته دون الاكتراث بمن هم في الأعلى، هذا بجانب حماية العقار من المتطفلين سواء كانوا صحفيين يسعون إلى الضجة، أو الفارين من العدالة، أو من هم عشاق المغامرة، تُرك المكان خاليًا منذ أمد. تُوفي من تُوفي، وباع من باع، انقضى جيل يعلم عن العقار حتى أتى الجيل الذي لا يعلم عنه سوى أنه عقار العفاريت، فلم يسكنه أحد وفضلوا الاكتفاء بالسمع عن المشاهدة.

حمقى، إنه تحفة معمارية بلا أدنى شك شُيدت في الستينيات في واحدة من أرقى مناطق الإسكندرية، منطقة رشدي، تمر جميع الطرق الحيوية به، إنه ثروة في عصرنا هذا؛ لذا لم أفكر يومًا في التخلي عنه ولن أفعلها إطلاقًا.

***

كانت الرابعة مساءً. الطرقات تسبح في بِرك من الماء، والسماء لا تكف عن إرسال المزيد، مساحات السيارات لا تتوقف عن العمل، أصيبت الشوارع بالشلل المروري نتيجة لذلك، تضاعفت أعداد رجال المرور للمعاونة في تسهيل حركة السير، وتضاعفت معها

أعداد المهرولين في الشوارع هروبًا من المياه.

عندما وصلنا أخيرًا إلى العقار استقبلنا الحارس الجديد بترحاب شديد، كان يمتلك جسدًا قوي يتناقض مع سنوات عمره التي قاربت الستين. علمت بأنه قد أتى من محافظة سوهاج خلفًا للحارس السابق الذي تقاعد من شدة المرض؛ ليرسل أحد أقاربه ليحل محله. قام بمعاونتنا في حمل الحقائب إلى الأعلى حمل حقيبتين في كل يد، كانت رائحة الطلاء تنبعث من المكان والأرضيات يبدو وأنها قد نُظفت اليوم، دلت رائحة المطهر على ذلك، كذلك يوجد مصابيح جديدة تنير المكان، صعدنا إلى شقتنا في الطابق الثاني يتكون العقار من خمسة طوابق هُجرت جميعها، وضع عم جلال الحقائب أرضًا، طويت ورقة نقدية فئة الخمسين جنيه مناولًا إياه. نالنا قسط وفير من الشكر وتركنا على وعد بإرسال ابنته في صباح الغد؛ لفض متاعنا وترتيبها.

يتألف الطابق من شقة واحدة تشغل كامل مساحه العقار. تتكون شقتنا من أربعة غرف رئيسية، وغرفة أقل حجمًا للخدم، وصالة قطعتان، وحمامان بالإضافة إلى مطبخ كبير وشرفة تطل على وجهتين. كان الأثاث ما زال بحالة جيدة إلى الآن، كان بالصالة طقم صالون مُذهب باللونين الذهبي للخشب والأبيض الممزوج ببعض الأزهار للأقمشة، وبيانو خشبي من الأنتيكات ورثته عن والدي، ودولاب للأطباق، ومكتبة تحوي بعض الكتب والروايات بجوار طاولة السفرة في الجزء الآخر من الصالة، بالإضافة إلى بعض الأنتيكات

الأخرى. بعض اللوحات على الحوائط في إطارات مذهبة تصور حِقب مختلفة من العصور التاريخية، رسومات لأشخاص وأزهار، وهناك في الزاوية تمثال من الشمع لزوج من الآلهة اليونانيين يتعانقون خلسة في ظلمة الصالة. في الجوار فتى في السادسة عشر من العمر يقف مراقبًا يمتلك شعر قاتم السواد أسفله وجه أبيض شاحب له عينان مستديرتان شديدتا الاتساع، يقف وحيدًا في الظلام يستمتع بالتحديق إلينا مباشرة.

ما هذا بحق الجحيم؟!

هذا ليس من الأثاث؟

دفعت ابنتي وزوجتي للخلف في مبادرة سريعة دون سابق تحذير وقفت مواجهًا له اقتربت ببطء من مكبس الكهرباء وتركت أنظاري تتابعه. إنه يقف متابعًا لي بدوره. يبدو كأنه بشري. إنه خائف. قسمات وجهه تدل على الخوف.. ربما قد يكون طفلًا أتى من الشارع وجد الدفء هنا وفضل البقاء إلى أن يذهب الشتاء. حتى و إن كان، فليأت بحركة ما.

وصلت للمكبس. ضغطُ الزر. واختفى الفتى.

ما هذا الهراء؟!

أقسم بأنه كان يشغل ذلك الحيز بين التمثال وباب الشرفة قبل أن أضيء الجزء الآخر من الصالة، كانت يارا قد بدأت في البكاء وسمر تحتضنها مهدئة من روعها، التفت نحوهم:

ـ شوفتي اللي أنا شوفته؟ تلعثمت.

ـ في أيه يا يوسف.. ينفع كده؟ البنت.

زمجرت في غضب. احتضنت يارا أكثر قبل أن تضيف:

ـ ممكن تتحكم في تصرفاتك شوية.. مش عشان خاطري.. عشان خاطر دي.

مسحت بيدها على شعر يارا:

ـ ماكنش فيه حاجة أنا ماشوفتش حاجة، ويارا ماشافتش حاجة، أنت بس اللي شوفت.

احتدمت غيظًا وهي تقول جملتها الأخيرة. اصفر وجهي. لقد رأيته حقًا. لم أكن أتخيل ذلك. لقد نظر إلينا قبل أن يختفي. كيف لم يرياه؟ حاولت أن امتلك زمامي، كنت على وشك المجادلة قبل أن أدير نظري إلى وجه يارا.

ـ كان فار كبير وهرب.. أنا هاجيب سم متقلقوش.

دنوت أرضًا نحو يارا ومن ثم طبعت قبلة على جبينها:

ـ حبيبة بابا ماتعيطش.. ده فار وحش ومش هيجي تاني.

أكملتُ مطمْئنًا.

لم تتحدث. فقط عانقتني، لقد رأيته حقًّا. قد يكون تأثير السفر إضافة إلى عدم نومي جيدًا في المساء، أنا بحاجة إلى بعض الماء الدافئ. تركتهم يرتبان الحقائب وذهبت لإشعال السخان. تركت مفاتيحي على الطاولة وانتقيت بعض الملابس جلست قليلًا شاردًا بنظري إلى ذلك الجزء الذي اختفى به هذا الشخص قبل أن أتجه إلى

الحمام.

***

تركت المياه الساخنة تنساب بهدوء على جسدي. كانت رأسي تعج بالأفكار السيئة فالأسوأ ثم الأسوأ. هل تورطنا في المزيد من المتاعب؟ لقد حذرني الكثيرون من الإقدام على تلك الخطوة. هل فعلت ذلك للعناد ليس إلا ؟

العقار لا يوجد به شيء. لقد كانا معي بالخارج لم يشاهدا ما شهدت. إنه من أثر السفر والإنهاك؟ أجل إنه كذلك بالتأكيد. أتاني الصوت أشبه بالفحيح من حولي:

ـ متركزش في اللي فات، عشان مايفوتكش اللي جاي.

سحقًا..

***

٤

استغرقت لحظات في حالة اللاوعي. معطيًا المجال إلى أبواق السيارات في الأسفل كي تمارس هوايتها المعتادة في إزعاجي. كم أتمنى ولو أن كان باستطاعتي قتلهم جميعًا الآن واجتثاث جميع مصادر الإزعاج من أحشائهم قبل أن أحيك من جديد بطونهم، ودفنهم في ذلك المكان الذي لا يعلم عنه «الدبان الأزرق» شيء. ومن ثم العودة ومشاركة رجال البحث الجنائي في محاولة العثور عليهم، ومن ثم استدراجهم وقتلهم جميعًا، ويأتي رجال آخرون يبحثون عن القتلى فيُقتلون، وهكذا إلى أن أظل وحيدًا في هذا الكوكب، ويأتي فضائيون فيُقتلون أيضًا، لا تربطني صلة قرابة بذوي البشرة الخضراء.

كان عقلي يعمل جيدًا أستمع وأحلل وأفكر بينما عيناي ما زالت في غفوتها. فتحتها في تثاقل شديد. احتاج مني الأمر دقائق كي أعود مرة أخرى من غفوتي، عاد الصوت من جديد. لم تكن أبواق السيارات هي المتسببة في إزعاجي لقد كان هاتفي مددت يدي متحسسًا سطح الكمود بجانبي، اصطدمت بكوب من الماء أوقعته أرضًا سقط سليمًا دون أن يتهشم، عانيت قليلًا قبل أن أحصل على الهاتف:

ـ آلو. قلتها متثائبًا.

ـ صباح الفل يا جو..أنا قولت اتطمن.. أيه الأخبار يا زعيم؟

أتاني صوت حسام من الجانب الآخر مفعمًا بالنشاط، كانت ساعة

الحائط تشير إلى السابعة، وهو ما جعلني أتسأل متى استيقظ لكي يصل إلى تلك الدرجة من النشاط؟

ـ سعادة الباشا.. زي الفل.. أنت عامل أيه. غمغمت.

ـ بخير والله نحمد الله.. مجبتش أفوت فرصة إني أكون أول واحد يتطمن عليكم.. أسيبك أنا بقى تكمل نومك ولو فيه أي حاجه كلمني ده رقمي الشخصي.

ـ متحرمش منك أبدًا يا حسام بيه.. متشكر جدًّا.

ـ عيب، متقولش كده يلا أسيبك أنا في رعاية الله.

ـ مع السلامة.

وضعت الهاتف بجواري على السرير، انتبهت إلى أن الفراش بجواري باردًا ومرتبًا، أزحت الغطاء نهضت واتجهت نحو غرفة يارا فتحت الباب ببطء فتحة بالكاد تكفي كي أختلس النظر دون إزعاجهما.

سمر تنكب على وجهها في وضعية غير محددة المعالم، إنها أقل عمرًا من صغيرتنا التي تستلقي بجوارها استلقاءً فيه شيء من الرزانة لم أجده منذ قليل.

اتخذت طريقي إلى الصالة تجرعت نصف زجاجة ماء من الثلاجة، لم أكترث همْ إعادتها إليها من جديد. فقط وضعتها على الطاولة قبل أن أتجه إلى غرفتي.

***

كان الوقت يقترب من الظهيرة، أصبح بإمكاني تحديد الوقت فقط من خلال موقع الضوء القادم من النافذة، في البداية واجهت بعض الصعوبة في ذلك إلا إنني اعتدت الأمر وأصبح بإمكاني تحديد الوقت بدقة، ربما أحتاج إلى القليل من الوقت ويمكنني أيضًا اختراع شيء ما، الأفكار واحدة من الأشياء الجيدة عندما تأخذ الأيام منعطفًا روتينيًا داخل الحبس الانفرادي.

«ارجع ورا يا مسجون».

أتاني الأمر من الخارج، قبل أن أسمع صوت رتاج الباب يفتح في عنف ويعبر منه إلى الداخل الصول سيد المسئول عن توزيع حصة المساجين من الطعام، كانت له هيئة سمجة يمتلك جسدًا مفتول العضلات وله بطن بارزة تحوي نصيب ثلاثة مساجين من الطعام ، سأدون في ملاحظاتي إذا ما نويت الهرب فعليَّ الحذر جيدًا من ذلك الكائن الخرافي من المستوى السابع، ربما كان الأخطر في ذلك المكان، مسح الزنزانة بنظراته قبل أن يفتح الباب قليلًا كان يقف خلفه صول آخر له شارب كث، أقوى جسديًا ويحمل مرجلًا به طعام اليوم الخاص بنا، تبًا. من أين لهم بهؤلاء العمالقة؟ لن أدون ملاحظات ولن أحاول الهرب، أنا أحب السجن. بالتأكيد يمتلكون المزيد من ذوي الهراوات في الخارج. تناول الصول سيد بعضًا من حساء العدس ومعلقتين من الأرز ووضعها في طبق واحد من الألمونيوم قبل أن يناولني إياهما، بالإضافة إلى قطعتين من الخبز مرت عليهم الأيام حتى تحجرا، ثم أغلق الباب من جديد وسمعته يأمر

سجين الغرفة المجاورة بالتراجع إلى الخلف.

***

استيقظت من رؤيتي على بعض اللكز من أصابع يارا، وهي تتذمر من شدة نومي:

ـ يالاه ما هو أصل أنا وماما لو مش صحيت حالًا.. هنخلص كل المربى كلها.

فتحت عيناي قبل أن أغلقهما مرغمًا بسبب ضوء النافذة الذي غمر حدقتاي فتحتهما من جديد؛ لأجدها تقف بجواري وهي تضم يديها إلى صدرها في تذمر، ما أن رأتني استيقظت حتى صفقت بيديها وصاحت وهي تعدو نحو الخارج:

ـ هيييييييييه، صحيته.. صحيته.

لقد سئمت ذلك الكابوس. لا أريد رؤيته مجددًا. لما دومًا نفس ذلك المكان المغلق ولباسي الأزرق والضوء القادم من النافذة؟ أيخشى عقلي الباطن من أن يُرهق إذا ما حاول التجديد، كنت بالمعنى الحرفي للكلمة منهكًا إلى أقصى حد، لم تفلح عودتي في تعديل مزاجي أو مزاجهم، ابنتي أيضًا أصبحت أبتعد عنها، أثناء غربتي كانت لي عدة محاولات لم تكتمل للكتابة لا أعلم بما كنت أفكر. مذكرات شخصية. رواية. ربما كتاب لم أحدد سوى بأنني بغضت الغربة ووجدت في كتابتي رفيقًا، ويا ليت أكملت بها غربتي.

الأمور لا تمضي إلى الأفضل بداية من ذلك الكابوس المقيت نهاية بذلك الشبح الذي حدثني بالأمس. لقد أقحمتنا في بعض المتاعب،

استشعر ذلك منذ أن قدمنا إلى ذلك المكان برغم أننا لم نكمل سوى ساعات معدودة إلا أن السعادة التي قدمنا بها لم تشاء أن تطأ قدميها الأبواب معنا، تركتنا ووقفت مودعة بذراعيها، كانت مرحة وهي ترى أنها لم تُقحم في معركتنا.

هل كانوا جميعًا على حق؟!

إذًا لما لم نستيقظ لنجد أنفسنا محاطين بالمارة بجانب أثاثنا المحطم كما يشاع بأنه قد حدث؟

دكتور خالد لديه بعض الأجوبة. سأزوره اليوم.

تمكنت مني نوبة صداع شديدة، بحثت في درج الكمود بجواري وجدت بعض أقراص الـ Rivo بأوراقها الزرقاء لا يخلو منزلًا منها، ربما مرت عليها بعض السنوات حبيسة المكان لكنها قد تفلح، ابتلعت قرصين وأمسكت بثالث وباليد الأخرى أمسكت بكوب الماء الذي أوقعته أرضًا منذ قليل كان كما هو لم يزحزح قيد أنملة من موقعه ولا تنقصه شربة ماء واحدة.

***

كانت طاولة الطعام تتألف من ثمانية مقاعد، ثلاثة لكل جانب ومقعدان على رأسيّ الطاولة. اتخذتا سمر و يارا مقعديهما على الجانب متجاورتان يارا الأقرب وسمر التي تليها، جلست إلى مقعدي في صمت، كانت سمر تصطنع الانشغال بتوزيع الفطور على الأطباق بالتساوي ويارا تنظر نحوي وأنا أجلس في تهكم بسبب تعمد إظهار تجاهلي إليهما. شرعنا في تناول طعامنا كنا نختلس النظرات

إلى بعضنا الآخر أنا وسمر، وما أن تلتقي أعيننا كانتا تتنافران كلٌّ في اتجاه معاكس، كما لو كان أحدنا يرتكب جرمًا في حق الآخر. أخطأت في قرار عودتنا إلى هنا ولكنها لم تعارض.

لم أفرض رغبتي عليها.. ولم.. لم.. ولم.. ولم..

جئنا إلى هنا لقد كانت رغبتنا المشتركة. لماذا الآن تلك النظرات الخالية من كل شيء. أخرجني من تفكيري صوت دقات عنيفة على الباب كانت كفيلة بانتزاع صرخات يارا. قمت سريعًا صوب الباب، في تلك اللحظة ظهرت من العدم أسفل فتحة الباب ورقة مطوية دُفعت للداخل، لم أكترث بها كثيرًا، فتحت الباب لم أجد أحدًا، اتخذت الدرجات إلى الأسفل عدوًا إلى أن أصبحت أقف أمام باب العقار ألهث، كانت نبضات قلب تزداد في الخفقان، وجدت الشارع خاليًا لا يوجد أحد يسارًا أو يمينًا، اتخذت طريقي إلى باب الجراح المجاور مناديًا بعصبية:

ـ عم جلال.. عم جلال.

ظهرت أمامي فتاة في العشرين من العمر ترتدي عباءة بنية اللون وتضع على شعرها منديلًا لونه أسود، كانت تمتلك تلك السُمرة الفاتنة. وقفت تنظر إليَّ باستغراب نظرت إلى نفسي لأجدوني لا زلت أرتدي ملابس النوم ولا أرتدي شيئًا في قدمي.

ـ فين عم جلال؟! سألتها.

ـ مين أنت يا أستاذ؟!

سألت وهي تنظر إليَّ متفحصة. لم يكن التوقيت مناسبًا للتعارف،

لم أستطع التحكم في غضبي:

ـ فين عم جلال بقولك؟

بداء القلق في عينيها جليًا، أجابت:

ـ هو في مشوار بيشتري طلبات، فيه حاجة أبلغهاله طيب؟!

ـ مشوفتيش حد طالع ولا نازل من باب العمارة؟

ـ لا محصلش.. البوابة كانت مقفولة يا بيه لسه الساعة١١.

تذكرت فعلًا بأنني من قمت بفتح الباب. لقد كان مغلقًا حين نزلت.

ـ لما يجي قوليله يطلعلي التاني على طول.. مفهوم؟ زجرت غاضبًا.

ـ مفهوم يا يوسف بيه.. أول ما يجي هقـ. .

لم أمهلها وقتًا كي تكمل فقط عدوت إلى الأعلى، كان الباب ما زال مفتوحًا وسمر تقف على مقربة منه محتضنة يارا وممسكة بالورقة التي أتت منذ قليل:

ـ مين؟!

سألتني في ارتياب، لم أجب مباشرةً، نظرت صوب يارا كانت ترتعد خوفًا. شعرت بالعجز كليًا منذ أن أتت إلى هنا وهي لم تذق إلا شعور الخوف، تملكت زمامي مجددًا:

ـ بتاع البوسطة.. كان مستعجل.. العجلة بتاعته أتسرقت.

نطقت تلقائيًا، حاولت بث بعضًا من الاطمئنان كي تشعر به يارا، سحبت الورقة من يد سمر.. كانت بها ثلاثة كلمات فقط حملت

توقيع «الأمين».

«فتحت أبواب الجحيم».

عليك العمل على تحسين خطك عوضًا عن تفرغك لنا أيها الأمين. تركتهما واتجهت نحو الحمام غسلت وجهي بقليل من الماء، كان يقف في المرآة مراقبًا لي. ابتسم وكما ظهر من العدم ذهب إليه.

لا أتحمل المزيد، وضعتُ رأسي بأكملها أسفل الصنبور وأغرقتها بالماء، كانت المياه تنساب فوق ملابسي تغرق جميع الأشياء التي تقف أمامها. إنها تجردني مني، كانت أوصالي ترتعد، الجو يزداد برودة والماء تغمرني بالمزيد، الصنبور يأبى أن ينغلق. لا يستجيب، بدأت جميع مصادر المياه من حولي في جلب المزيد. حوض الاستحمام امتلأ عن آخره والمياه تتدفق منه إلى الأرض تتجه صوبي، أيضًا خزان المياه أعلى المرحاض يلفظ مياهه، يرتفع منسوب المياه تدريجيًّا. اتجهت نحو الباب فلم أجده.

الحائط..

النافذة أيضًا لا وجود لها..

قارب منسوب المياه على الوصول إلى خصري. بدأت أشعر بالتجمد يسري في أوصالي. أصابني الخدر. حاولت أن أتماسك وصلت المياه إلى عنقي. يوجد المزيد من المياه التي تستعد إلى الوصول لما هو أعلى. سبحت باتجاه حوض الاستحمام. وقفت على الحافة كي أكتسب بعض الوقت قبل أن تغمرني المياه كليًا. مر أمام مخيلتي وجهي أبي وأمي يمدان يدهما إليَّ في خوف.

يريدان انتزاع شيئًا ما من يدي..

هل هي المساعدة؟؟

أجل إنها هي، طردت صورتهم من مخيلتي، تشبثت في ماسورة المياه التي تغذي الدُش انتزعتها بقوة من مكانها كانت المياه قد غمرت فمي وتقترب من أن تبتلعني، علوت كي أتنفس كتمت أنفاسي وسبحت نحو الحائط الذي كان من المفترض إنها باب منذ قليل، استخدمت الماسورة في محاولة الكسر في الحائط سيظهر الباب من جديد، هذا ما يحدث عادة، لكنه لم يحدث.

خارت قواي المياه وصلت إلى السقف، أذهب إلى اللاوعي ببطء، أضواء تتكون أمامي مكونة أشكالًا لنجوم تلمع في السماء وتختفي، وتظهر شموس وتختفي، أصوات صراخ أحدهم ينادي باسمي صارخًا، خيالان يعدوان صوبي وينزفان دم، المياه تعكر بالدماء أصبحت حمراء. وها أنا أحتضر، وسط المياه في أقصى الحمام يقف مراقبًا لي صديقي الشبح لا يكترث بالمياه؛ إنه يتنفس أسفلها.
لكنه خائف.. من له الخوف الآن؟!
رئتاي تكدان أن تنفجرا، أغيب الآن عن الوعي..
المياه جميعها تُسحب نحو بلاعة الحمام وأُسحب معها.. أدور كما يدور الغسيل في الغسالة، جذبتني يد بشرية. لمستها أسرت نوعًا من الدفء في جسدي. حاولت إنقاذي. التفتت إليها..
كانت أمي..
وسقطت.

***

سمعت أصوات مشوشة لأشخاص يتحدثون. بدأت تدريجيًا في الوضوح كان مصدرها من الأعلى. إذًا أنا في البلاعة الآن. كان المكان من حولي حالك الظلام له رائحة غير مألوفة، لكنه لم يكن رطبًا. بدأت الأصوات في الاقتراب شيئًا فشيئًا.

إنه الصول سيد..

إذًا أنا سجين.. لست في البلاعة..

يا لحماقتي كل ما حدث ما هو إلا حلم. لا توجد سمر. أيضًا يارا لا وجود لها، حمدت الله، بالتأكيد ذهب الشبح بدوره. سيفتح الباب الآن ويترك طعامي ويذهب.

- يوسف.

أتاني النداء من الأعلى. إذًا أنا في البلاعة.

- يوسف.

هذه المرة شعرت بأنامل تتحسس أوردتي، قاومت كي أرى في الظلام فتحت عيناي ضربها ضوءٌ شديد. أغلقتها مجددًا. لكني رأيت.. تبًا..

لقد مت، أنا في الجنة رأيت الشمس فوقي ضربت عيناي، المكان كله يكتسي بالأبيض حتى أنا أيضًا.

لما لم أُعذب في القبر؟!

هل مت شهيدًا؟

بدأ عذاب القبر..

صفعة قوية أصابت صدغي أجبرتني على العودة مجددًا إليهم، فتحت عيناي تدريجيًا كي أعتاد الإضاءة، كنت مستلقيًا في فراش يكتسي بالأبيض وذراعي غُرست به إبرة معدنية تعمل على إيصال المحلول المعلق بالأعلى إلى أوردتي، يقف من حولي شخصان يراقبونني وهما ينحنيان، على مقربة مني رجل وامرأة يرتديان الأبيض أيضًا. الملاكان ذكور. من أين أتت الأنثى؟ لم أُخبر عنها شيء.

حاولت أن أجبر ذاكرتي على استدعائهم ولم يحدث. لكنها حددت هوية الشخص الذي يقف في الخلف يقاوم موجاتٍ من القلق وحده، إنها صاحبة اليد التي أنقذتني من الغرق لم تكن أمي، كانت سمر تقف في حالة يُرثى لها ما أن رأتني عدت إلى الواقع حتى ذهبت هي إلى اللاواقع.

سقطت أرضًا..

عدوا الشخصان نحوها وهما يصرخان في محاولة استدعاء المزيد منهم.

المزيد؟! هل تتسع المقبرة إلى المزيد؟!

بالفعل رأيت خيالًا لاثنتين أخيرتين يهرولان نحوها يرتديان الأبيض أيضًا.

وأظلم القبر مجددًا..

***

٥

عندما استيقظت في المستشفى صباح اليوم كنت أشعر بتحسن، أمعنت النظر كدب قطبي أصابه الضجر، من حولي هنالك تلك الأشياء الخاصة بالفنادق، سجادة سميكة تغطي الأرضية، مقاعد جلدية وثيرة يتوسطها منضدة خشبية تعتليها بعض المجلات، شاشة LCD مثبتة على الحائط بالإضافة إلى مجموعة من الزهريات تكفي لإنشاء غابة صغيرة الحجم. هذا فقط نصف الغرفة.

حتمًا سأقوم بتنظيف الأرضيات مقابلًا لخروجي. التفت برأسي قليلًا كي أرى النصف الآخر. ربما عليَّ الاستعداد لغسيل بعض الأواني أيضًا. كانت قابعة في المقعد إلى جواري تغط في نوم عميق، اعتدلت ببطء متألمًا، كان الخدر يسري في جسدي من تأثير الأشياء التي حُقنت بها، لو تجرعت الخمر لكان الأمر أيسر. مددت يدي برفق أحتضن كفي وجنتها، ملمسها الدافئ كفيل بأن يجعل من فبراير يوليو بأوج حرارته، شاحبة، لكنها ما زالت قطعة ألماس. الوحيدة التي جذبت انتباهي في صندوق الجواهر، كم هو تعيس ذلك المدعو «غرنوي» لم يكن بإمكانهم امتلاك ذلك الأريج بعد في القرن الثامن عشر.

- حبيبي.

قالتها بوهن بعد أن استشعرت لمساتي، قبلت كف يدي قبلة بثت الحياة في أرواحنا:

ـ أنا بحبك أوي يا يوسف.. أوي.. أكتر من أي حاجة في الدنيا أنا مستعدة أمشي معاك للآخر وأنا مغمضة، بس كون كويس عشاني.

أغرقت عيناها بالدموع، وظلا بؤبؤيها في التحرك منعًا لهطول الأمطار:

ـ أنا مش عايزة حاجة من الدنيا غيرك يا يوسف.

ـ ولا أي حاجة خالص؟!

ـ خالص.

ـ طب والشغل اللي كنتى قرفاني بيه؟ أشتغل.. أشتغل وكأنه عفريت نازل عليكي.

زادت الأمطار على وجنتيها، أصبح أنفها أكثر احمرارًا، أصبحت رائعة كما عهدتها دومًا:

ـ أقدر أعيش من غير أي حاجة في الدنيا، إلا رضا ربنا ووجود روحي وأنت روحي يا يوسف.

تمت جملتها وهي تنظر إليَّ بعينين أعشقهما. داعبت دموعها أصابعي، الأمطار التي ضربت النافذة في الخارج كانت أقل غزارة، قربتها مني. صارت أنفسها أقرب. تنفستها قبل أن أضم رأسها إلى صدري، أنا بحاجة إلى تلك المياه. البركان في صدري لم يعد خاملًا.

لدي قناعة شخصية بأن القائلين سلفًا إن الغائب عن العين غائب عن القلب هم أشخاص ارتكبوا إثمًا عظيمًا في حق أنفسهم أولًا. إن كانت مقولتهم صادقة حقًا؛ لأمسوا في طي النسيان الآن، كم من

غائب لا زال يمتلك حضوره الأول بداخلنا.

احتاج الأمر بعض التعزيزات الأمنية لفض الاشتباك بيننا. دلف من الباب وجه مألوف يرتدي معطفًا أبيض. انفرجت شفتاه في ابتسامة بلهاء، استشعرتها. لقد أمسكنا متلبسين، أعزب مخبولًا بالتأكيد، الآن سيبحر خلسة ليرسوا بالقرب من غرفة نومنا يحضر مقعدًا ويجلس مغتصبًا لجرعة التبغ التي تمتلئ بها سيجارته، يغلق الأضواء ويعطي الأمر لكاميرا واحد بالتحرك. يؤلف المشهد ويخرجه و يمن علينا بأدوار البطولة:

ـ عاااااايز إحساس أكتر من كده يا مدام رشا.

قبل أن يصيح في نصر:

ـ stooooop هايل يا أستاذ.

دقائق كفيلة بأن يخرج بعدها من الحمام متخذًا طريق العودة تحملانه ركبتان تريدان أن تُحمل.

ـ صبا...

قاطعته في برود، تمنيتُ انتزاع عيناه من محجريهما:

ـ مخبطتش ليه؟!

ـ أااانا قولت.. تلعثم.

ـ متقولش.. تخبط.. مش هعلمك الذوق يا دكتور.

تنحنح محاولًا إعادة ضبط ضغطه الذي ارتفع جراء كلماتي؛ حتى أصبح وجهه أشبه بمرجل تكاد محتوياته تتناثر خارجه من شدة

الغليان، تمتم في هدوء كان صوته عميقًا. افتقد إلى نبرة الود، لكنه ظل مهذبًا:

ـ أكيد مش هتعلمني الذوق يا دكتور.. أنا شايف إنك تمام، تقدروا تمشوا وقت ما تحبوا.. عن إذنكم.

***

ـ تحبي نرجع إسماعيلية؟ سألت.

كنا نتخذ طريقنا إيابًا بعدما أنهينا إجـراءات الخـروج من المستشفى:

ـ أنت مرتاح فين؟

ـ مرتاح هنا.

ـ أنا راحتي في راحتك.

لم تمتعض أو تبدي أي نوع من أنواع الاعتراض. مدت يدها نحو التابلوه. أمسكت علبة سجائرها وألقتها من النافذة قبل أن تضيف:

ـ تحب تعزمني في المكان بتاعنا، ولا مبقاش ليك في الرومانسية يا أستاذ.

ـ و يارا؟!

ـ أسماء أنت عارف إنها مبتخلفش ومحمد في الشغل ليل ونهار وما صدقت إني أتصل بيها تاني وأطلب تخلي يارا عندها.. كانت زعلانة إني ما كنتش بسأل بس، وعزمتهم عندنا على الغداء الأسبوع ده.. على الأقل تشوف صاحبك.

ـ لسه مخلفوش؟! دول من قبلنا.

ـ العيب منه. بس هي راضية، الواحدة لما بتحب ممكن تضحي بكل حاجة.

قالتها وهي تتحسس بيدها جانب الباب لتغلق النوافذ ليحل الصمت لدقائق، قبل أن تنبعث الأصوات من سماعة السيارة بالأغنية المفضلة لكلينا:

«أنا جيتلك هنا لوحدي، وحنيتلك، وبكره الوقت يثبتلك، بحبك قد أيه وبهواك»

ـ خلاص أنا وافقت إني أعزمك، بس الأول دوري لنا على مكان ناكل لقمة فيه.

ـ تؤتؤتؤتؤ.. لا يا أستاذ، أنا مجهزالك العشاء اللي بتحبه، هنتعشى في البيت وفيه شمع أحمر كمان.. وممكن أسيب البت عند أسماء النهارده.. أبسط يا عم. تمتمت وهي تغمز بعينيها.

ـ ده عرض مغري جدًا.. كده ممكن أفكر. داعبتها.

ـ ومين جاب سيرة العرض؟! نطقتْها باستغراب.

ـ ده غصب يا حبيبي استكملت.

«مجيبتش حاجه من عندي، ده إحساسي، في بُعدك روحي بتأسي، مبرتحش إلا وأنا وياك، نااااديلي»

استعادت الوردة عبيرها، سمر كما شبت أمامي، الحالمة، الحنونة. الشمس التي تشع البهجة في أرض البؤساء.

***

كانت الساعة تقترب من السادسة، الشمس تستعد لأن تتوارى عن الأنظار مستمتعة ببرودة المياه في الأسفل بعد يوم شاق من المشاحنات.

جلسنا نراقب خلف الزجاج الذي يحتل الواجهة الأمامية للمكان أسفل لافتة تحمل اسم المكان الأشهر في الإسكندرية «الشيخ وفيق» ما تمت خطبة، زواج، أو حفل طهور إلا بمباركة الشيخ بطبق الأرز باللبن المزين بالجيلاتي والمكسرات. أصبحت عادة تتوارث. الفستان، البدلة، العربية، القاعة، الشيخ وفيق. لا أخفي سرًا، إنه يصنع الإدمان.

ـ أجيبلكم أيه يا فندم.

سأل النادل وهو يضع زجاجة مياه. قلب على فوهتها كوبين من البلاستيك على المنضدة أمامنا:

ـ أتنين رز جيلاتي.

ـ مكسرات ولا من غير؟

نظرت إلى سمر متسائل، نطقت:

ـ مكسرات.

استدار مغادرًا وبعد لحظات أتى ما طلبناه، أرادت سمر أن تُأكلني بيدها، بعد مشاكسات ومراقبة لمن هم حولنا، وافقت مرغمًا. تسامرنا وقضينا أمسية هي الأروع منذ أمسية عودتي من الخارج، فاتحتها في ضرورة اللجوء إلى شخص ما للمساعدة:

ـ مش فاهمة؟! استفسرت.

ـ يعني شيخ يا سمر.. حد بيفهم في الجن.

ـ أنت مصدق أن فيه حاجة؟

ـ أنت شوفتي وأنا شوفت، سكوتك معناه كده. تمتمت معترضًا.

ـ والورقة اللي جات لنا معناها إنه حد بيحاول يقنعنا بده يا يوسف.

بالكاد انتبهت إلى ذلك. بالأحرى لم أسمع عن عفريت أكمل تعليمه ويستطيع إرسال الخطابات بطريقة أفلام الأبيض والأسود. العفاريت الآن أكثر تطورًا. يوجد البريد الإليكتروني في هذا العصر.

***

استدعتني سمر للداخل بعض أن لبثت على الباب بضع دقائق، زينت الصالة بكميات كبيرة من الشموع الحمراء تفترش الأرضيات بمحاذاة الحائط كانت الأضواء مغلقة، رأيت على وهج الشموع الأسقف تتزين بالبلالين الحمراء على شكل قلوب وثلاثة مدافئ موزعين في أنحاء الصالة تعمل على تدفئة الجو، طاولة السفرة تتحاذى فوقها في تنظيم أطباق تحوي بعض الأنواع من الحلوى وأخرى بها أنواع مختلفة من الفاكهة، بالإضافة إلى أطباق توزيع فارغة، وفي المنتصف هناك ذلك الطبق الأكبر حجمًا به لحم مشوي يقبع خلف أسوار من أصابع الممبار ذهبية اللون. طعامي المفضل، تفوح أيضًا من الجو بعض الروائح الطيبة التي أغنتني عن استنشاق هواء فبراير

المفضلة لي:

ـ أيه ده كله أيه ده كله!! إحنا عندنا فرح؟ سألت.

ـ إحنا بقالنا قد أيه هنا؟ نطقت في تذمر.

ـ أسبوع.

ـ عملنا فرح يا حدوتة؟

قالتها في غنج وهي تخلع معطفها وتتجه نحو أقرب مقعد لها، فهمت المغزى من حرصها على جعل الأجواء دافئة.

ـ نعمل فرح يا قلب الحدوتة.. هيتعمل لأعز منك. أجبت ضاحكًا.

ـ طب هنا كل ونخلص ولا هنقضيها مفاوضات.

ـ مفاوضات؟

تذرعت بالقول وأنا أتجه نحوها جذبتها من على المقعد إلى أحضاني، طبعت قبلة هادئة على عنق الجنة، أكملت:

ـ عمرك شوفتي عشاء قبل الفرح؟! خلي الأكل ناخده في كيس أسود في الآخر.

ـ اووووووووه، لالالا فاتتني دي.

نطقتها بليونة وهي تضمني بدورها، جردتها من بلوزتها وهي ما زالت في أحضاني. طبعت المزيد من القبلات على عنقها، لا تفاحة آدم هنا، كانت توجد ثمرات المانجو الاستوائية تناولتها فيما مضى لكنهما نضجا مجددًا الآن، مثلما هناك عوامل تعرية هناك عوامل تحلية، ما أعظم الطبيعة، اتجهت نحو الأسفل قليلًا كي أتذوقهما،

ضمت رأسي نحوها. ضربت أنفي أمواج من عبقها الربيعي.

دوى في المكان صوت صفيق صم أذني. تركتها من يدي. وقفت حائرة أمامي. وقفت محاولًا تحديد وجهة الصوت، لم أنتظر قليلًا سمعت دوي إغلاق باب الحمام في عنف. عدوت نحوه سريعًا تبعتني سمر لا تزال تعبيرات القلق تفترش وجهها، جذبتني قبل أن أدلف إلى الداخل: ـ ولع النور.

وقفت صامتًا أنظر إلى الداخل أرى وجهه يخترقني. بهتان العينان اللتان تشعا الشر. إنها المواجهة. الآن يقف أمامي في العدم لا أرى سوى عيناه:

ـ ولع النور يا يوسف. كررت في رعب.

مددت يدي لم أجد مكبس الكهرباء، اقتربت هي للبحث عنه، طالت يدي صدرها دفعتها للخلف في عنف:

ـ أجري أنتي. أمرتها.

لم يجيبني سوى صوت تألمها، اقتربت أصوات أنفاس عميقة مني. كان الأمر برمته مثيرًا للرهبة. تراجعتُ للخلف تعثرت في سمر. وقعت أرضًا وجرت هي نحو الصالة هاربة. مد ذلك الشيء يده وأمسك بي قبل أن يجذبني إلى الداخل، ظللت أقاوم بحركات صبيانية ضاربًا قدماي في الأرض يمينًا ويسارًا.

لم تفلح محاولتي في إثنائه عن عمله. إنه متمرس في مجاله جذبني بقوة تتناقض مع جسده الهزيل. زادت مقاومتي. كان الرعب قد تمكن من أوصالي التي أصيبت بالشلل، جسدي فقط يتشنج كمن أصيب

بنوبة قلبية.

أين سمر الآن؟ هل هربت لتتركني في ذلك الوضع وحدي؟

كانت مجرد ثوان لكنها مرت دهرًا بأكمله. أتاني من الصالة صوت العزف على البيانو الخاص بوالدي. تبًا. يوجد المزيد منهم، سمر في خطر الآن، إنها في الخارج بمفردها. تمنيت لو أنها تركت المنزل بأكمله، سمعت صوت العزف مجددًا، يبدو أنه يمد المساعدة إلى صديقه الذي بدأت قواه في الضعف منذ قليل، ما أن سمع العزف حتى ثار هائجًا، أوتي القوة فجأة، جذبني جذبة واحدة؛ لنصبح بعدها بمفردنا داخل الحمام، صرخت في رعب. سمعت فحيحًا يصدر منه كان غير مفهوم، لكن الحوائط تفاعلت معه وكُتبت عليها بالإضاءة الخفيفة التي كانت باهرة في تلك الظلمة:

«الصغيرة لنا.. سيقام الحفل عند انكشاف القمر في السماء»

قرأتها، أصفر وجهي. إنها يارا المقصودة، حاولت الخلاص من تلك اليد التي تقيدني ومواجهة ذلك الكائن أيًا كان. قاومت قليلًا قبل أن أتحرر فعليًا، وقفت على قدماي مواجهًا له. وما أن فعلتها حتى غمر ضوء قوي المكان بحثت عن مصدره. التفت إلى الخلف؛ ليضرب عيني كشافًا للطوارئ بيد سمر تلهث عند الباب، تبعه إشعال لأضواء الحمام.

واختفى كل شيء.. أيضًا الرسالة لم تكن موجودةً على الحائط، «الصغيرة لنا.. سيقام الحفل عند انكشاف القمر في السماء» في ذهني حُفرت.

***

خيانة سمر

دائمًا ما تأتي الطعنات في الظهر من أولئك الذين ائتمنتهم على حمايته، تنشغل بمواجهة أسهم الأعداء وتنسى أمر الأسهم التي تُسن على مرأى منك.

١

الأمر كلفنا بعض من الأموال الإضافية حتى نتجاوز ذلك الجمع في الخارج. لم يكترث ذلك الأعرج بثرثرة المتواجدين اعتراضًا على اغتصابنا عنوة لهم على مرأى ومسمع من الجميع، كان المكان على أعلى مستوى من التجهيز، التنظيم جيد، وهو ما جعلني أتسأل عن سبب كل تلك الإجراءات، لم أزور أماكن مشابهة من قبل لكنني أعلم عنها جيدًا، لا تتمتع بتلك الدرجة الكبيرة من السرية، لم نصل للمكان مباشرة أتى بنا الدليل إلى الفندق أولًا بعد أن توسط لنا «عم جلال» حارس العقار؛ لنحصل على الثقة اللازمة لذلك، توجهنا نحو الاستقبال، تجلس فتاة لها من القوام ما تُدق لأجله الحروب كحرب طروادة ارتدت بزةً رسمية باللونين الأبيض والأسود خلف حاجز رخامي أمامها شاشة حاسوب تُستخدم في الحجز ومجموعة مكونة من ثلاثة هواتف أرضية متراصة بجوار لوحة المفاتيح:

ـ صباح الخير يا فندم.. أهلًا بيكم في مجموعة فنادق الماسة.. أقدر أساعدكم؟ قالتها بآلية شديدة.

ـ عايزين تذكراتين جواهر.

تذرعت قائلًا كما أخبرت، زادت من انتباهها إلينا، قبل أن تعتدل وهي تطبع بعض الأحرف على لوحة المفاتيح:

ـ اسم الدليل.. من فضلك. طلبت.

ـ أبو حنان.

ـ تمام.. فيه عملية النهاردة.. ممكن أمنيًا حضرتك تأكد الكود معايا.

بحثت في جيب معطفي قليلًا قبل أن تظفر يدي بالورقة المطوية بداخله، فتحتها وحفظت الأرقام قبل أن أجيب:

ـ تمام.

ـ ٥٦٥.......

ـ ....٣٠٤٦٥. أكملت لها.

ـ تمام يا فندم.. أستاذ يوسف محمد.. ومدام سمر محمد.

قامت من مقعدها واتجهت إلى الداخل في خطوات ثابتة لم تتأثر بالكعب الذي لا يقل عن عشرة سنتيمترات بعد أن طلبت مننا الانتظار قليلًا. مرت دقائق قبل أن تعود بصحبة آخر قصير له نظرة ماكرة يرتدى نظارة طبية، أصلع من المنتصف، له زوج من الأسنان في الصف العلوي مفقودتان وأخرى ذهبية بالأسفل، تفحصنا من الأعلى للأسفل، دون أن ينطق أشار لنا نحو الداخل، يبدو أنه جهاز الفحص في المكان. تجردنا من ساعات اليد والهواتف المحمولة وجميع الأجهزة الإليكترونية التي قد تسجل؛ خشية التجسس على المعلومات السرية لديهم، تخيلت موسيقى جيمس بوند الشهيرة تعزف في الخلفية وأنا أخرج من المكان متعلقًا في سلم المروحية، دلفنا إلى مصعد لديه عامل أسود اللون يرتدي زيًّا إفريقيًّا مميزًا، كانت هناك عدة مفاتيح للطوابق بالأعلى وأخر للطابق الأرضي، لم يضغط العامل على أيًا منهم. أخرج من جيبه عمودًا حديديًّا

يشبه القلم ووضعه في ثقب مُعد له مسبقًا على لوحة المفاتيح وأداره للخلف. بعدها اتخذ المصعد طريقه قرابة الخمس طوابق، لا للأعلى.

دخلت إلى مبنى أمن الدولة على ما أتذكر مرة واحدة فيما مضى، كانت إجراءات الدخول أيسر من تلك التي اتبعناها قبل أن نصبح هنا في باطن الأرض، يصطحبنا ذلك الأعرج في ممر يكتسي بالموكيت الأحمر فيه الأضواء تأتي من مصابيح سفلية موزعة يمينًا ويسارًا، كل عدة أقدام مصباحان متوازيان، كان الممر يربط الردهة في الخارج بالغرفة خلف الباب الأسود في آخره. بفضل تلك الورقة فئة المائة جنية التي أصبحت في جيب الأعرج الآن وفي سبيلها أخذ بالباقي سبًا وشتائم من الحانقين في الخارج؛ لقضينا الليل بأكمله ننتظر، التفت نحونا - فجأة قبل أن نصل للباب بخطوات - التفاتة جعلت سمر تتراجع للخلف فزعًا وتتشبث بيدي:

ـ الست جواهر مبتحبش السجاير جوه.

داعب ذقنه قليلًا وأكمل:

ـ ممكن تسيبلي علبتك أنا بحبها.

قالها وهو يكون شبح ابتسامة ميتة على وجه أفحمته عوامل التعرية:

ـ مش مكفيك العشاء اللي في جيبك؟! خلص أفتح الباب. تمتمت معترضًا.

قابلني بقهقهة عميقة:

ـ أتفضلوا يا بهوات.

لديه شيطان بالداخل. قبل أن يفتح الباب و يسمح لنا بالدخول.

***

خابت توقعاتي. كانت الساعة الرملية في حجم شخص متوسط الطول، تصدر رمالها أصوات مسموعة وهي تتصارع نحو الأسفل، هي أول ما وقعت أعيننا عليه في الجانب الأيمن من الغرفة وفي الجانب الآخر هناك إناء نحاسي يعتلي عمودًا من الرخام يبلغ ارتفاعه أربعة أقدام، في الأرض قبعت الست جواهر امرأة في الستينيات من العمر لها وجه برزت عظامه تمتلك عينين جاحظتين وحاجبين مرسومين، ولديها شعر غير مقيد يملأ فراغًا كبيرًا من حولها في تشابك يدل على أنه لم يذق شربة ماء منذ فترة طويلة، ترتدي عباءة لم أستطع تحديد لونها مع تلك الإضاءة الحمراء القادمة من المصباح في الحائط خلفها؛ ليترك الظلال في اتجاهنا ويحجب جزءًا لا بأس به من الغرفة الخالية عن الأنظار، اختيار موضع المصباح كان موفقًا نوعًا ما. الجو العام بالداخل مثيرًا للرهبة، كان هو مصدر الرؤية الوحيد في المكان، لكن السائل أيضًا في القارورة الزجاجية أمامها كان له وهج ضعيف وهو ما جعلني أحدد قسمات الوجه الشاحب أمامي للجالسة خلف منضدة ترتفع قدمًا واحدًا عن الأرض و يبلغ عرضها المتر والنصف، تعتليها بلورة من الكريستال في حجم كره قدم في أقصى اليسار، وفي المنتصف أمامها يوجد أوراق أشبه بأوراق البردي دونت عليها طلاسم غير مفهومة، وفي المساحة الخالية توجد

تلك القارورة المتوهجة تحتوي على سائل أخضر اللون غير ساكن يتحرك بتناغم بطيء، استشعرت أنه كثيف ولزج حركته البطيئة أوحت لي بذلك. على جانبي المنضدة شلتتان للجلوس فوق سجادة من الصوف تتكون من خليط مختلف من الألوان غير المتناسقة. لا وجود للبخور. لا رؤوس حيوانات على الحائط. ولا أقدام للماعز. لم أكن أدري لماذا كل تلك الأشياء من أجل الدخول إلى هنا:

ـ أسأل حكومتك.

أجابتني إنها تقرأ الأفكار. أخبرت نفسي، عليَّ التحكم فيما يدور داخل ذهني؛ حتى نخرج من ذلك المكان:

ـ أقعدوا.

أتى الصوت غليظًا من حنجرة الجالسة أرضًا، كانت تركز نظراتها في نقطه غير مرئية لنا موقعها أعلى رؤوسنا، قبل أن تردف وهي تنظر نظرةً ذات مغزى صوب سمر:

ـ سمر، بنت سعاد.

أزاحت نظراتها عنها وسلطتها علي:

ـ يوسف، ابن فتحية.

أصبحت نبراتها لها صدى مسموع في الفراغ من حولنا، لم نخبر أحدًا في الخارج عن تلك الأسماء، إنها تلقي أحد أوراق اللعب إلينا كي تربح ثقتنا، تخبطنا قليلًا ونحن نجلس، وأخيرًا جلسنا في مواجهة بعضنا البعض:

ـ جايين ليه؟

سألت وهي تركز نظراتها في النقطة بالأعلى، لم أعد قادرًا على تحديد هل الحديث لنا أم لآخرين.

ـ عمارة رشدي.

عمدت أن تكون إجابتي ذات تأثير درامي، بالفعل ظهر التوتر على وجهها، تركت ما كانت تنظر إليه. وجهت نظراتها صوبي مباشرةً، وهي تدنو برأسها مني قليلًا، نظرة الفزع على وجهها أفزعتني وظهر نفس الأمر على وجه سمر بدورها:

ـ دي ملعونة، إياكم تقربوا.. الساكن مسكون والخارج مدفون.

كانت كلماتها متقطعة، وتصيبها رعشة ملحوظة أثناء الحديث، شعرت بالرهبة مما يدور:

ـ مش فاهم. تثاقلت وأنا أنطقها.

ـ لو رايحين تسكنوا.. أهربوا، أما لو سكنتم ومر عليكم شمسين وقمر، اللعنة طالت حد فيكم ومش هتخرجوا من غير خسارة.

رفعت ذراعها الأيسر نحو الأفق وكررت ببطء:

ـ مفيش خروج من غير خسارة.

«الصغيرة لنا.. سيقام الحفل عند انكشاف القمر في السماء»

تخيلتها تحفر أمامي على القارورة المتوهجة. وقع الكلمات علينا أصابنا بالشلل، كانت سمر أمامي تجلس كمن صعقت. فاغرةً فاهها تنظر إليَّ في رعب، لم يكن حالي أفضل منها، تماسكت:

ـ إحنا ساكنين وبقالنا حوالي أسبوع.

قامت تهرول مبتعدة للخلف وهي تصيح رافعة ذراعيها إلى الأعلى:

ـ حافظ.. حافظ.. حافظ.

سجدت وهي تكررها، قبل أن ترفع رأسها قليلًا وهي في وضع السجود، كانت مرعبة في ذلك الوضع، نظرت إلينا قبل أن تضيف:

ـ استنوا مكانكم أوعوا تتحركوا.. أوعوا تتحركوا.

التكرار أتى بنبرة أضعف، بعدها انكبت على وجهها مغشيًا عليها، لم أدري ما علينا فعله. الاستغاثة أم الهرب، لم أكن أتمتع بمستوى جيد من الحظ يجعل من في الخارج يصدقون روايتي، سيحسبون أننا قمنا بقتلها عمدًا، المكان كان مغلقًا لا وجود لأحد سوانا وقد كانت بصحة جيدة. من بإمكانه إنكار كل هذه الإثباتات؟ ومن ثم تصديقنا نحن.

نظرت إلى سمر. وجدت أطرافها ترتعد. تنظر إليَّ في خوف. اقتربت منها. احتويتها بداخلي، لم أكن أدري ما القادم، لكن البدايات دائمًا ما تنذر بالنهايات القادم أسوأ.

استمرت قرابة الثلاث دقائق على ذلك الوضع، قبل أن تستعيد وعيها ببطء، وقفت مترنحة وكما وقفت جلست مكانها خلف المنضدة مجددًا، بالكاد أعارتنا اهتمامًا وهي تجلس بنظرة حادة قبل أن تصرفها عنا، جحظت عيناها وبدا وجهها غريبًا عن الوجه الذي رأيناه حين أتينا، بدا وكأنها ستصاب بالإعياء وهي تقلب الأوراق أمامها قالت مختنقة:

ـ الموضوع محتاج معاينة.

فكرت قليلًا قبل أن تضيف بصوت أخفض:

ـ الأسياد طالبين معاينة.

حاولت إلا أفكر في الخطر المحدق إلينا، أخبرتها عن الرسالة التي ظهرت لي في الحمام، صعقت سمر لم أخبرها عنها. لم يكن ينبغي عليَّ إخبارها مسبقًا. أتى صوتها متحشرجًا:

ـ بنتي.. يوسف أنت ناوي على إيه؟!

حين تعجبت أنا من كلماتها كانت هي قد شهقت وبدأت في البكاء، كنت بجوارها لم أعد إلى مكاني مددت يدي على كتفها مهدئًا:

ـ النهارده أرجوكي.

توسلت من الست جواهر كي لا تؤجل المعاينة، فالربيع على وشك القدوم. ستنكشف السماء عمَّا قريب. نظرتْ إلينا شزرًا، حاولتُ أن أقرأ ملامح وجهها بحثًا عن الموافقة كانت عيناها قلقتين، شردت قليلًا قبل أن تطلب منا الانتظار في الخارج.

تابعتنا بعد دقائق ترتدي إسدالًا ذا حجاب يخفي نصف وجهها العلوي تذكرت حراس أزكابان وأنا أراقبها، أخبرت الأعرج بإلغاء جميع جلسات اليوم. تمنيت أن لا يعلم الحانقون بالخارج عن كوننا نحن المتسببين في ذلك الأمر، قبل أن نتخذ جميعًا طريقنا صوب الأعلى يتقدمنا الأعرج مرشدًا، من خلفه أنا بينما في المؤخرة سمر بصحبة الدجالة، نظرت إليهما والتفتت مجددًا. لم يعلق في ذهني سوى تلك الابتسامة التي تبادلها وهما ينظران إحداهن إلى الأخرى،

أين القلق والنحيب. استشعرتها في غير محلها، وتساءلت عما قد يحدث إذا ما علم الأمين بأنني أقدمتُ على طلب النجدة. مؤكدًا إنه لن يسعد بالأمر.

***

ماذا وأن كان يعلم بقدومنا؟

فكرت في نفسي ونحن نسلك طريق الكورنيش متوجهون إلى العقار. كانت تساورني بعض الشكوك حيال الجالسة في الخلف، ربما ما هي إلا محتالة تريد استغلال شهرة المكان في جني بعض الأرباح، بالإضافة إلى المزيد من راغبين فك الأعمال، أو من يبحثون عن ربطها، لم أكن متأكدًا. المحاولة الفاشلة لإحداث تغيير مؤثرة أكثر من الجلوس والنحيب، أقنعتُ نفسي بذلك.

كان المنزل معتمًا، النوافذ تُصدِّر الظلام إلى الخارج ولا تستقبل الأضواء منه، أغلقت الباب خلفنا أتى صوته مضاعفًا، تلمست الحائط بحثًا عن مفتاح الكهرباء، لم تشتعل ولم أكلف نفسي عناء المحاولة مجددًا، ربما هي المرة الثانية لقطع الكهرباء التي أخبرتني عنها سمر، أشعلت بعض الشموع. تقدموا على أثر الضوء القادم منها إلى الداخل، كانت الست جواهر تعلم طريقها جيدًا، لم تتخبط أو تتعثر في الظلام، توجهت إلى المنتصف تمامًا وسجدت في الأرضية تستمع بأذنيها، كررت الأمر عدة مرات وكما فعلت في الصالة توجهت إلى الغرف. كانت تحفظ المكان عن ظهر قلب، تساءلت وأنا أمشي خلفها حاملًا شمعة للإنارة عن الطريقة التي

تجعل منها ملمة بتفاصيل المكان، أنا ولدت هنا وأتخبط أحيانًا في الظلام، فرغت من الغرف واتجهت صوب الحمام وكررت نفس الأمر. وقفت أنا وسمر نراقب في صمت قبل أن يجعلنا صوتها المنبثق من الظلام في القفز من مكاننا، كانت ما تزال ساجدة في الأرضية ولكنها بدأت في الصراخ والاستغاثة بصوت متحشرج واهن، شعرت بجسدي يقشعر لعدة ثواني، عادت الأضواء باغته للمكان ومعها عادت إلى الوقوف مجددًا كانت تحملق بنا، عيناها أصبحت أضيق والتوى فمها عن تكشيرة:

ـ الحمام بيته، والصالة منطقته.. هنتكلم في الأوضة الصغيرة.

أتى صوتها شاحبًا أقل حيوية، بدا عليها وكأنما قامت بمجهود شاق للتو، تقدمتنا إلى غرفة يارا تبعناها في صمت وترقب، سمر كانت تمشي بطبيعية شديدة تتناقض مع ما يدور حولها، حمدت الله على كونها تملك ذلك القدر من السكينة، دلفنا إلى الغرفة ثلاثتنا، رسمت الست جواهر على الأرض مثلثًا وهميًا وجلست أعلى إحدى زواياه وأمرتنا بأن نفعل ذلك مع الزاويتين الأخرويتين دون أن تنطق فقط أشارت، تبعنها.

كنت أنا الأقرب إلى الباب وسمر بجواري والدجالة بقرب الفرش، بدأت حديثها ونحن نصغي إليها، علمنا بأن المكان به ثلاثة أرواح تسكنه لأشخاص قتلوا؛ اثنان في الصالة والقاتل قُتل في الحمام، الحمام هو الأقوى وبه يكمن شر المنزل، شعرت بأنني أعلم بتلك التفاصيل مسبقًا:

ـ سكان الصالة من الجن العامر، دول مبيأذوش.. بيسكنوا بس، ممكن تحسوا بيهم بس من غير أذى.

كانت تتعمد خفض صوتها وهي تتحدث، أغمضت عيناها وهي تضيف:

ـ الشيطان.. جن بيبعد عن الدين، المارد.. جن مؤذي وخبيث.

عادت الجدية والقلق إلى ملامحها وهي تكمل:

ـ اللي عندكم في الحمام أقوى من كل اللي فات.. مجمع الشر بتاعهم كله، في الحمام جن عفريت، مش هتطلعوا من غير خسارة.. والخسارة في الأوضة دي، الأوضة دي محصنة ومش عارف يوصلها، صاحب الأوضة دي تذكرتكم للهروب من هنا.. لازم تضحوا بيه.

حدقت بها للحظات شارد الذهن قبل أن أفهم ما ترمي إليه.

«الصغيرة لنا.. سيقام الحفل عند انكشاف القمر في السماء»

الدماء في عروقي جفت لم تعد تجري، أيضًا هناك صرخة حبستها بداخلي تصارع من أجل الخروج، سمر تبكي في صمت وهي تراقب لم تكن تتابع كلامها، كانت تتابعني أنا. نظرات الشفقة والخوف كانت موجهة ليّ، رفيت بعيني مرتين، حاولت تنظيم الفوضى التي دبت في رأسي، أملتها للأمام صوب الست جواهر:

ـ الحل.

سألت في محاولتي للتماسك قدر المستطاع، كان بداخلي طفل يصرخ.

ـ قربان، صاحب الأوضة قربان.

قالتها وهي تميل رأسها للأمام كما فعلت مسبقًا، صفعتني على وجهي الكلمات، ارتعدت أوصالي، أخذت أهذي وعيناي تبللها الدموع:

ـ بتهزري.. صح.. ده هـزار.. صح، صح قولي صح.. يـاراااا لا صح؟؟

خرقت سمر المثلث، جلست بجواري أحاطتني بذراعيها قبل أن تضيف عوضًا عني:

ـ أكيد في حل صح؟ عشان خاطرنا.. دي الحاجة اللي بتخلينا نعيش.

كانت أكثر تماسكًا مني، نظرت إليّ مرتبكة، بدأت الهذيان بكلمات غير مفهومة، كنت أشعر بأنفاسها الحارة على وجنتي وأنا أغوص في تلك المنطقة الفاصلة بين الواقع والعدم. مجموعة كبيرة من الظلال المضيئة تجذبني إلى الهاوية. يقف شخصان ملوحين بالأسفل وبالأعلى ظهر من العدم آخر يدفعني إليهما، صارعت كي أبقى، تسمرت قدماي في التراب ولكنه استمر في الدفع، تحتك قدماي مثيرة عاصفة من الأتربة وهي تقترب ببطء من الانزلاق، وجهت نظراتها صوب الست جواهر صارخة:

ـ انطقي.. خلصي.

كان المشهد عبثيًا من حولي. الست جواهر تفاعلت معها، نسيا أمر يارا الآن وتكاتفتا من أجلي، أومت برأسها قبل أن تهمس:

ـ مفيش داء من غير دواء، الأمر كبير ويلزمه خادم قوي.. الملك

شمهورش، خادم يوم الخميس قاضي الجن حكمه على ٤٩ قبيلة.. عنده الخلاص.

قالتها وسجدت إلى الأرض من جديد وهي تكرر، أتت في مخيلتي صورةٌ استحضرتها من فيلم قديم لمارد يخرج من المصباح يُدعى شمهورش:

- حافظ.. حافظ.. حافظ.

كان المشهد الأخير الذي رأيته قبل أن أذهب منهما..

***

عندما عدت مجددًا كنت ما زلت في غرفة. يارا هناك بعض الاختلافات، لا وجود لجواهر، أنا مستلق على السرير، بحثت بقدمي عن الشبشب بالأسفل قبل أن أجده بعدها اتجهت إلى الصالة، شمس الصباح بدأت في البزوغ، بعض الأضواء ولجت إلى الداخل من النوافذ، الأمطار توقفت عن الهطول، نظرت إلى الساعة كانت السادسة والربع صباحًا، على طاولة السفرة كانت سمر منكبة على وجهها، بدا وكأنها على ذلك الوضع منذ ليلة الأمس، شعرت بشيء من تأنيب الضمير. أنا الذي أقحمتهم في ذلك الأمر وها هي تواجه الموقف بثبات افتقده، إنها دائمًا الملاذ، اقتربت منها ببطء ووضعتُ أصابعي على كتفها، رفعت رأسها بوهن وهي تنظر إليَّ مبتسمة، كانت تعطي الإذن إلى الشمس بالشروق الآن، قامت مستندة على يدي. ألقت نفسها بين ذراعي وهي تقول:

- حبيبي.. يارا هتكون كويسة، وإحنا كمان.

تساءلت. من منا بحاجة إلى الاطمئنان الآن؟! أبعدتها قليلًا كي يتسنى ليّ النظر إلى عينيها، ابتسمت:

ـ مؤمنة بيا؟

قالت بنبرة رقيقة:

ـ ربنا في السماء، ويوسف سبب ربنا في الأرض.. مش خايفة وأنا معاك.

ضحكت:

ـ طب منمتيش ليه لما أنتي مش خايفة؟

إجابتها كانت قاطعةً:

ـ مابخافش وأنا معاك عليا، ده مايمنعش إني بخاف عليك.

أعدتها إلى أحضاني ثانية لثوان، قبل أن أبعدها مجددًا وأنحني للأسفل قليلًا وأعود معتدلًا مرة أخرى بعدما حملتها أعلى ذراعي، توجهت بها إلى غرفة يارا. تعمدت إلا أنظر إلى الحمام، لكنني لم أستطع تجاهل ذلك القفل الذي وُضِع على الباب والمصحف الموضوع مفتوحًا أعلى منضدة في منتصف الردهة:

ـ كده أحسن.. تسلم إيدك يا حبيبتي.

قبلت جبينها وأنا أضعها على السرير، أجابتني بمرحٍ طفولي:

ـ ماله الحمام الصغير؟حتى ده كان كبير ورخم كنت بتوه فيه.

استلقيت إلى جوارها، تركت الوسادة ووضعت رأسها على ذراعي، داعبت خصلات شعرها:

ـ عارفة إن من نعم ربنا عليا هي وجودك في حياتي. اعترفت.

ـ وجودنا في حياة بعض يا حبيبي. صححت لي.

***

٢

بحلول الظهيرة عاد كل شيء إلى الأفضل، أعني أنه ليس بذلك السوء الذي كانت عليه ليلة الأمس، تناولنا الإفطار، أخذ مني الأمر بعض الوقت حتى اعتدت تغيير الطريق إلى الحمام، هكذا أفضل أصبحت لا أرى هذا الأمين، عملت سمر على إزالة جميع المرايا من المنزل كما طلبت الست جواهر بالإضافة إلى توزيع نسخ من المصحف في أنحاء متفرقة من المنزل مفتوحة على آيات من القرآن، أيضًا التلفاز بدوره يقرأ بعض الآيات بصوت قراء مختلفين.

لم تكن راضية عن إصراري النوم في غرفتي، جعلت من غرفة يارا ثكنة عسكرية، فراش إضافي في الأرضية بجوار سرير يارا كان يناسبني؛ كي نمكث جميعًا في تلك الغرفة، وافقت مرغمًا على ما تريده، ساعدتها قليلًا في ترتيب المكان.

***

تأففت غضبًا وهي تحدق إلى الإشارة الحمراء التي ظلت على ذلك الوضع لمده نصف الساعة قبل أن تُبدل إلى اللون الأخضر أخيرًا، كنا في الطريق كي نستعيد يارا وتلبية دعوة محمد وأسماء على الغداء بعد أن علموا بما حدث في الأمس؛ لتتحول دعوه الغداء منَّا إليهم.

وصلنا بعد قرابة الساعة والنصف من القيادة، كانت المسافة الفعلية بيننا لا تستغرق نصف الساعة، هذا في أي مكان بخلاف القاهرة والإسكندرية. المسافة هنا تقدر بالقدر، لا بالوقت.

حصلنا على استقبالًا رائعًا آخر. فكرت لو أنني لم أغادر ومن ثم أعود ما كنت وجدت كل تلك الكمية من الحفاوة والترحيب من الجميع، رسخ لدي اعتقادًا بأن الغياب يترك أثرًا جميلًا دائمًا.

كان «محمد» يضاعفني وزنًا ويكبرني عمرًا، له وجه مربع الشكل غليظ القسمات أسفل شعر ناعم يأخذ شكل الطبق، للوهلة الأولى قد تظن إنه يحمل الجنسية الهندية حتى تتحدث معه وحينها ستجزم بأنه مصري صرف، كان محمد صديق الطفولة الذي بقى من مجموعة قوامها خمسة أصدقاء؛ أنا وهو بالإضافة إلى خالد، أحمد، محمد. الأخير كان يتشارك معه في الاسمين الأول والثاني، استعضنا عنهما بالاسم الثالث لكل منهما، أصبحنا سنطلق على الأول فتحي والأخير مختار، أنا سافرت وغبت طويلًا، خالد أيضًا علمت إنه فعلها ويعمل الآن لصالح إحدى المنظمات الحقوقية في الخارج، أحمد كان شديد الولع بسباقات السيارات قبل أن يلقى حتفه في حادثة سرعة، مختار أنتقل للعاصمة وأصبح لاعب كرة شهير بصفوف نادي قمة هناك، أما محمد فعل كما فعلت دون السفر فضل الاستقرار تزوج من أسماء بعد قصة حب كُللت بالنجاح، يأملون منها بأن تثمر عن المولود الأول عما قريب، لم نلتق منذ أمد إلا أن زوجته كونت صداقة مع سمر من خلالها كان دائمًا متابعًا لأخباري.

منزلهم كان أقل إضاءة من الداخل وأكثر دفء مما توقعته لجو داخلي لمنزل يقع في مواجهة البحر مباشرة، كان أقرب إلى منزل أهل سمر غلب عليه طابع الأثاث الحديث عن منزلنا الذي ظل محتفظًا بأثر

والداي، ذهبت سمر إلى المطبخ بصحبة أسماء، يارا فضلت البقاء معي. جلست على قدمي تداعب مفاتيح ذراع التحكم بين يدي وأنا أواجه محمد في واحدة من مباريات الـ PlayStation، استمتعت بجلوسها هكذا، احتضنتها أكثر محاولًا التغلب على الشعور بالخوف عليها وأنا أتذكر تفاصيل ليلة الأمس.

عندما أنهينا طعامنا، سألت عن موقع الحمام جرت يارا لتقف أمامي وهي ترفع أصبعها السبابة للأعلى قائلة:

ـ أنا.. أنا اقولك.

كانت ذكية بالفعل، أرشدتني إلى الحمام، اغتسلت من بقايا الطعام على يدي، كان لا يزال بداخلي ذلك الشعور بالخوف، وضعت رأسي تحت الماء لثوان ورفعتها، كنت مضطر أن أواجه صورتي في المرآة وأنا متكئ على الحوض؛ كنت أنا، وجهي شاحبًا لا لون له، لحيتي وشاربي زاد نموهما قليلًا، المياه تقطر من رأسي للأسفل وفي الخلفية. الأمين ما زال معي. صعقت..

التفتت سريعًا للخلف لم أجد شيئًا، كانت مجرد تخيلات، أوهمت نفسي بذلك.

بعد أن عدت إليهم في الخارج، كانوا قد فرغوا من تناول الطعام، عرض عليّ محمد الجلوس معه في غرفة مكتبه رحبت بذلك، كانت الغرفة لها حوائط من الخشب في الأماكن الظاهرة خلف مكتبات كثيرة تعج بالكثير من الكتب مختلفة العناوين والفئات، بينما الإضاءة لا تأتي مركزية من المنتصف؛ بل كانت تأتي من الزوايا

الأربعة، فكرت ربما كانت الإضاءة غير المباشرة أفضل للقراءة، في مواجهة الباب كان هناك شيزلونج جلدي في المنتصف، ومقعدان أشبه بمقاعد غرف النوم. تساءلت:

ـ هو فين المكتب؟!

أجاب ضاحكًا وهو يتجه إلى الشيزلونج:

ـ مبرتحش وأنا بقراء غير على البتاع ده. كل ملفات القضايا اللي أخدت فيها براءة قريتها وأنا ممدد هنا.

نطقها وهو يمسح الهواء بذراعه بطول الشيزلونج قبل أن يضيف:

ـ زي ما تقول كده بتفائل بيه.

جلست على المقعد المستدير بلا ظهر، جلس هو على الآخر.

ـ شغال أيه تاني؟! سألت.

ـ شايف إني محتاج شغل تاني.

تمتم متفاخرًا بما يملك وهي ويمسح برأسه الفضاء من حوله.

ـ عايز تقنعني إن ده كله من المحاماة؟

ـ شمال، أمشي شمال تعيش عال.

قالها وهو يشعل سيجارة بنية اللون ظننت، في بادي الأمر كونها أصبع من أصابع السجق قبل أن استنشق موجات التبغ التي ضربت أنفي:

ـ ما شاء الله بتقول حكم. سخرت، ثم أردفت:

ـ والخلفة؟

ـ أمر ربنا.. مش هنعترض، أنا شمال أه بس لسه عندي حتة إيمان، فاكر ياض البت إيمان بتاعة بحري؟

ـ طول عمرك وسخ.

ـ بلدك لو فيها صابون هنضف.

قهقه وهو ينطقها، رفع رأسه قليلًا ناظرًا للأعلى قبل أن يواجهني مجددًا:

ـ أيه اللي بيحصل في شقتك؟

وجهت رأسي للأسفل مرت أمام عينيي صورتان؛ واحدة ليارا والأخرى لذلك الأمين، لم أرفعها وأنا أجيب:

ـ عفريت.

ـ نعم؟!

ـ زي ما بقولك كده، عايز تفهمني إنك المحامي الأشهر في إسكندرية ومسمعتش عنها.

ـ سمعت، بس ده كلام بنقوله إحنا لما بنبقى عايزين نداري على ملفاتنا، إحنا العفاريت وفي نفس الوقت إحنا الشيوخ اللي بتصرفنا.

شعرت بالغثيان من إصراره على محادثتي بعمق:

ـ كنت بقول زيك كده، بس الموضوع قلب جد.

ـ والعمل؟ ما تشوفلك مكان تاني.

ـ ما بقاش ينفع للأسف.

رفعت رأسي للأعلى قليلًا وأنا أتجه بها يمينًا و يسارًا ببطء:

ـ طالب قربان عشان نطلع. أكملت.

كانت سيجارته قد أنتهت، ألقها نحو سلة المهملات في أقصى الغرفة. اصطدمت بالحافة وسقطت في الأرض، بعدها اعتدل نحوي:

ـ مش فاهم.

كانت نظراته فاحصة لا مبالية، شعرت بأنني أواجه طبيبًا لا محاميًا:

ـ يارا يا محمد، عايزين يارا.

قام من مكانه واتجه إلى الشيزلونج، التقط سيجارة أخرى قبل أن يعود:

ـ أيه يا بنى اللي أنت بتقوله ده؟

ـ زي ما سمعت يا محمد، كفاية بقى أسلوب الاستجواب ده، عندك حل قوله معندكش سيبني باللي فيا.

ـ فيه شيوخ كويسين في المواضيع دي.

قالها محاولًا الكف عن توجيه الأسئلة:

ـ إحنا جيبنا واحدة دجالة الناس بتقول كويسة.

ـ المواضيع دي نصب، هو شيخ اللي هيجيب من الآخر.

ـ خليها الورقة التانية لو الورقة دي فشلت مش هنخسر حاجة.

بعدها أخذ الحديث منحنى آخر، عرض عليّ العمل معه في مكتبه. سألته مترددًا عن نوع العمل علمت منه بأنني سأقوم ببعض الأعمال

الكتابية، فكرت في كونها فرصة جيدة للابتعاد عن المنزل والانشغال بأشياء أخرى، أيضًا سمر بإمكانها العمل دائمًا ما كانت تريد ذلك وكنت أمنعها، ويارا ربما ستحبذ العودة إلى الدراسة في الروضة من جديد حتى تأتي بداية العام الدراسي ونلحقها بأحد الصفوف في مدرسةٍ للغات، أو قد يأتي الخلاص سريعًا ونغادر ذلك المنزل إلى الأبد.

***

عندما جلسنا في السيارة كانت سمر في المقدمة وأنا ويارا في الخلف جلست الأخيرة بعيدة عني بالقدر الذي سمح به مقعد السيارة، كانت تعض على شفتيها في تذمر وهي تنظر من النافذة تصطنع اللامبالاة لوجودي بجوارها تمامًا مثلما تفعل سمر عندما تغضب، مددت يدي جذبت خصلات من شعرها قبل أن أنظر إلى الأمام متظاهرًا بأنني لست الفاعل، نظرت إليَّ ومن ثم نظرت حولها قبل أن تدير رأسها غير مكترثة بالأمر، كررتها للمرة الثالثة، كانت تستشيط غضبًا:

- شوفتك على فكرة، وإحنا بينا خصام، من فضلك متدخلش في نطاق حريتي.

- نعم!! نطاق!!

أخرجتها مندهشًا؛ الكلمات التي خرجت للتو أكبر من عمرها ببعض الأعوام، أكملت وأنا أجذبها ضاحكًا:

- وجبتي الكلام ده منين إن شاء الله؟

تمنعت من جذبي لها متأففة:

ـ هو كده، طنط أسماء قالت لأونكل محمد كده وهي زعلانة، لو سمحت مش تسببلي إزعاج، بليز.

استدارت إلى النافذة مجددًا، رفعت حاجب واحد إلى الأعلى موجهًا حديثي إلى سمر:

ـ هي البت دي عندها كام سنة بالظبط؟!

ضحكت:

ـ مسمهاش بت يا حبيبي، دى أكبر مني ومنك عندها...

قاطعتها القردة الصغيرة:

ـ أيوه مش أسمي بت دي، أنا أسمي لالا.

أكملت سمر بعد أن انفجرت ضاحكة:

ـ روح قلبي شهر سبعة الجاي هتم أربع سنين.

جذبتها عنوة إلى قدمي حاولت التملص قمت بتقيدها إلى صدري، استسلمت أخيرًا:

قالت في دلال:

ـ تؤتؤتؤتؤ ، متحاولش.

طبعت قبلةً على وجنتها، أضافت في مرح:

ـ توديني الملاهي، وتجيبلي لعبة جديدة؟

أتت إجابتي على شكل أمر موجه إلى سمر، التي جلست تراقب في المرآة بحذر لا أدري من ماذا:

ـ اطلعي بينا على المعمورة.

تفاعلت بابتسامة ساحرة، صفقت يارا بيديها وانقلبت مواجهة لي كي يتسنى لها النظر إلى وجهي:

ـ ومش هتقولي كفاية، ويا لاه يا لالا عشان عايزين ننام وتسيبني أنا لحد ما أزهق لوحدي؟

ـ لحد ما تزهقي.

قالت مرحة:

ـ هيييييييه، بابي حبيبي.. أنت كده تستاهل Big Kiss.

تساءلت وهي تقترب من وجهي:

ـ بوسة كبيرة؟

احمر وجهها وأغلقت بيد فمي وباليد الأخرى فمها في استحياء، وهي تهمس:

ـ عيييييب.

***

عندما أشاهد المعمورة الآن أتعجب كثيرًا من المسمى القديم لها، كان يطلق عليها «الخرابة»؛ لما كانت تحتويه من أطلال ومقالب للنفايات قبل أن يأتي الخديوي عباس حلمي الثاني ويستهل فترة ولايته بإنشاء سراي المنتزه ومن ثم الاهتمام بما هو شرقها؛ لتطول يده منطقة «الخرابة» التي صدر لها قرار رسمي بإعادة تسميتها بـ» المعمور» نقيضًا لذلك الاسم البائد، خُصص الشاطئ بها آن ذاك إلى الأسرة الملكية، كما أقيمت بها بعض الدور والقصور والفيلات

الخاصة بالأمراء والوجهاء، قبل العام ١٩٥٥ كان قسم المنتزه بأكمله لا وجود له، كانت الجهات بداية من سراي المنتزه حتى أبو قير تابعة لمركز كفر الدوار بمحافظة البحيرة قبل أن تنضم في ذلك العام تلك المناطق إلى الإسكندرية فصلًا من مركز كفر الدوار بعد إنشاء قسم إداري جديد تابع للإسكندرية يسمى قسم المنتزه، في العصر الحديث تم تخصيص منطقه حدائق المنتزه؛ لتكون مفتوحة أمام كافة المواطنين من أبناء الشعب، بالإضافة إلى الزوار من حاملي الجنسيات الأخرى بعد أن كانت قاصرة على أفراد الأسرة المالكة فقط، وكذلك منطقة شاطئ المعمورة؛ حيث تم إنشاء شركة خاصة لتنمية المنطقة، كما تم تقسيمها إلى أراضي ذات مساحات متفاوتة لإقامة الفيلات والعمارات ولتتوافر للمنطقة كافة المرافق والخدمات، تتواجد المطاعم والمقاهي والأسواق، بالإضافة إلى شاطئ يعتبر واحد من أخر الشواطئ الشرقية للإسكندرية على البحر المتوسط أيضًا تحتوي على مدينة كبيرة للألعاب الترفيهية؛ لتصبح المعمورة بمثابة مدينة عمرانية سياحية متكاملة داخل الإسكندرية.

***

كان حظنا طيبًا. اليوم هو الثلاثاء منتصف الأسبوع دائمًا ما كان يبتعد عن الزحام مفضلًا للعمل في صمت، استطعنا أن نجد مكانًا آمنًا لترك السيارة مقابل لبعض العشرات من الجنيهات لمدة زمنية محددة، كانت الأجواء لا تحتاج إلى المعاطف تركناها في السيارة كذلك

تركنا الهواتف لم نحمل سوى كميات من النقود الإضافية، قبل أن نتجه إلى شباك التذاكر حصلنا على ثلاث بعدها دلفنا إلى الداخل، حاولت الابتعاد قدر المستطاع عن تلك الآلة التي ترتفع إلى الفضاء وتقلب الأشخاص رأسًا على عقب، كنت أعاني الرهبة من الأماكن المرتفعة، لم تفلح محاولاتي أمام إلحاح يارا وضحكات سمر الطفولية متوسلة إليّ كي لا أفسد اليوم، سحقًا لليوم، إذا ما فعلتها سيفسد اليوم مؤكدًا، انتهى بي الأمر متكئًا على الحائط في إحدى البقع الخالية غارقًا في كميات من القيء المتواصل بينما أستمع للضحكات الآتية من الخلف والتعليقات التي ظلت تطاردني طوال الليل، تطلب الأمر مني بعض الوقت حتى تعافيت من الشعور بالغثيان.

حصلت يارا على دميةٍ تقاربها في الحجم لكنها تملك اختلافًا في لونها الأحمر، حصلنا بدورنا على صورتنا العائلية الأولى بصحبة «بوكا» دمية يارا كما تناديها الآن.

عندما طلبت المثلجات لم أكن في حاجة إلى طلب ثلاثة أصناف مختلفة، كنا على وفاق تام في الطلب جميعنا نفضلها بجميع النكهات باستثناء الليمون، بعد تناول العشاء لم نجد متسعًا لتناول التحلية، فضلنا الاكتفاء بذلك القدر، بالتأكيد يكفي ما نلته من السخرية أثناء القيء تمنيت لو أنهم تناولوا تحليتهم كانت ستسنح لي فرصة الأخذ بالثأر.

كانت موجات من الهواء بدأت في ضرب أجسادنا ونحن نتجول على الشاطئ الأمواج كان ارتفاعها يقارب الستة أقدام، كانت العاشرة

عندما سألت سمر:

ـ حبيبي، هنمشي أمتى؟

نظرت إلى يارا كانت بالفعل قد اكتفت، أومأت برأسها متثائبة غلبها النعاس، أكملت بها الطريق إلى السيارة متشبثة بعنقي خشية السقوط من بين يدي، عانت سمر بجسدها الهزيل وهي تحمل «بوكا» قبل أن نضعها بجوار يارا المستلقية في المقعد الخلفي، عدت إلى المقدمة مجددًا.

***

٣

كان الجميع يوجهون النظرات إليّ؛ ذلك الذي حصل على الامتيازات قبل أن يحصل على العمل وهو يسير متبادلًا لحديث لا يخلو من الضحكات مع «مستر محمد» كما يلقبونه في المكتب، أيضًا هناك من يناديه بالاسم ذاته داخل أسوار المحكمة، رأيت في نظراتهم نوعًا ما من الدهشة ربما هي المرة الأولى لهم التي يرون بها الابتسامة ترتسم على الشفاه الغليظة للمدير، أو قد أكون أنا الشاذ في الموضوع، لم أكترث:

ـ أتفضل يا سيدي وأدي مكتبك.

قالها وهو يمسح بذراعيه الغرفة، لم أتمكن من منع اندهاشي وأنا أرى غرفة لها واجهة زجاجية من السقف إلى الأرضيات جعلتني أشعر بالرهبة قليلًا، وأنا أراقب المارة والسيارات بالأسفل بالرغم إننا لم نرتفع كثيرًا إنه الطابق الثاني فحسب، مكتب زجاجي أمام مقعد أقرب إلى مقاعد الطائرات مع تلك الوسادة المثبتة في مستوى الرقبة للعمل على راحة الجالس بالإضافة إلى ستة مقاعد من تلك التي تجدها في محطات القطارات، ثلاثة مقاعد لكل جانب أمام المكتب، هناك أيضًا ثلاثة مكتبات خشبية موزعة في الغرفة متفاوتة الحجم، بعض الأشجار الصناعية في الأركان وفي مواجهة المكتب، على الحائط هناك ثلاثة ساعاتٍ دائرية. جعلني هذا الأمر أتسأل عن سبب تكرار الرقم ثلاثة في أغلب الأشياء، كانت الساعات

يختلف التوقيت من واحدة إلى الأخرى أسفل كل واحدة منهم تمييزًا بالأسود على خلفية بيضاء يدل على إنها تتبع توقيت دولة أخرى، قلت مندهشًا بعد أن فرغت من مسح الغرفة بنظراتي:

ـ ده مكتبي؟! أومال أنت مكتبك عامل أزاي؟!

غمغم بتفاخر وهو يربت على كتفي:

ـ محمد فتحي أشهر من النار على العلم.. الكرسي اللي أنت هتقعد عليه ده قعد عليه قبلك، علي سليم، كريم عبد الجواد، ممدوح الغرباوي.

أضاف وهو يعبث في أزرار أساوره الذهبية في فخر:

ـ الأسامي دي لو اتجمعت في قضية واحدة تخرب بيت اللي رافع القضية.. المساعد بتاعي يا يوسف وجهتي وده مكتب وجهتي.. أنت المساعد الأول لمحمد فتحي.. مبروك يا بطل.

قالها مشجعًا بشيء من الهيمنة الذكورية كذكر الدب القطبي في موسم التزاوج، قبل أن يتخذ عدة خطوات إلى الباب وهو يقول:

ـ أها، نسيت أقولك إن آخر واحد قعد على الكرسي ده، مدحت المرسي ذات نفسه.

ـ مش ده اللي أخد براءة في القضية بتاعت الرقاصة إياها؟

التفت إليّ ثم قال غامزًا:

ـ ما أنت حاضر أهو.

ـ ده أنتو عصابة بقى.. واكلين البلد.

ضاقت عيناه نحوي شعرت معها وأنه قد يقوم بالانقضاض عليّ الآن قبل أن يبرز صدره للأمام معدلًا وضعية رأسه للأعلى، وهو يستنشق أنفاسًا من سيجارته قبل أن يخرجها بصوت مسموع شعرت معه بالسخرية:

ـ صدقني بكرة الناس هتشكرنا إننا أكلنا البلد ومسبنهاش تعفن وتترمي في الزبالة.

تجعدت جبهته وهو يضيف:

ـ شد حيلك البلد دى عايزة أكيل.. هبعتلك شوية ملفات تسن بيها سنانك، وبعد الضهر هننزل سوى أوريك الغدا وهو بيستوي.

بعدها غادر. أسندت ظهري في مقعدي وعقدت ذراعي على صدري وأنا أواجه المدينة بالخارج. وصلت إلى تلك النقطة التي بعدها سأربح جميع الأوراق على الطاولة أو سأحرق آخر كروتي وأنا أتجرع مرارة الهزيمة، عقدت العزم على أن أمضي قدمًا. اخترت الطريق الأصعب وها أنا عالق في المنتصف لا يمكني العودة. رن هاتفي برقم حسام قاطعًا لحبل أفكاري:

ـ ألووو.

أتاني صوت حسام من الطرف الآخر مفعمًا بالحيوية كالعادة:

ـ ألوووو، سلام عليكم.. عامل أيه يا باشا؟

ـ بخير والله يا ريس، أزيك وأزي الجماعة؟

ـ نحمد الله والله، لسه قافلين السكة حالًا مع العيال.. قالولنا أن

الجلسة بكرة. صح كده ولا سمعت غلط؟

كانت نبرته تحمل شيئًا من الهدوء وهو يسأل، أخبرته عن صحة المعلومات التي وردته، حاول بث الطمأنينة بداخلي ببعض الكلمات وأنهينا المكالمة بوعد منه على متابعة الأمر معي في الغد من خلال الهاتف.

احتاج الأمر مني المزيد من الوقت حتى اعتدت التعامل مع كومات الأوراق التي امتلأ بها مكتبي طوال اليوم، تأتي الملفات لقضايا مجمعة، أقرأ التقارير ومن ثم تصنيف الملفات حسب نوع القضية وإرسال كل نوع إلى القسم المختص بالتعامل معه داخل المكتب، كان المكتب متعدد الغرف يعمل كخلية النحل في تناسق وتناغم تام تحت إشراف من «المستر» الذي رأى أن المكان بالأسفل مزدحمًا؛ فقرر نقله مكتبه إلى الطابق الأعلى بأكمله بعيدًا عن ضوضاء المطبخ بالأسفل.

***

تساءلت في صمت عن وجهتنا، وأنا أجلس في المقعد الخلفي بصحبة محمد الذي جلس يتصفح بعض الأعداد من صحافة اليوم، كان في المقعد الأمامي يجلس حارسه الشخصي يبرز من جانبه الجراب الخاص بسلاح ناري، وإلى جواره السائق الخاص يسلك الطريق دون أن يسأل على وجهته.

بعد انقضاء ساعات العمل عدت إلى المنزل وفي محصلتي سبع وخمسون ملفًا لقضايا مختلفة التصنيفات ، ومكالمة تليفون، وبعض الحلوى

كانت تخص يارا، بالإضافة إلى اجتماع مشبوه مع أحد المرشحين لعضوية البرلمان من ذوي النفوذ القوي والموقف الضعيف؛ من أجل تدعيم موقفه بالمحامي الأشهر في البلد، قضية فساد ملفقة إلى هشام رشاد الخصم الأقوى ومرشح الحزب الذي كان يدير مقاليد البلاد قبل نكسة يناير على حسب رؤيتهم، يترافع فيها أمامه محمد فتحي المحامي الأكثر دهاء وجذبًا لوسائل الإعلام في البلد كفيلة بقلب الطاولة، تذكرة بلا عودة في قطار البرلمان نظير خمسة ملايين من الجنيهات، تعتبر صفقة رابحة لكلا الطرفين.

***

التقيت سمر ويارا عند الباب تبادلنا بالتساوي بعض الثواني من العناق، قبل أن أترك سمر تقاسم يارا الحلوى الخاصة بها متجهًا إلى الحمام الصغير، لم يكن يحتوي على حوض للاستحمام، فقط زاوية في أحد الأركان. وقفت مستمتعًا بالماء الدافئ وهو يداعب جسدي، للمرة الأولى يمر حمامي بسلام دون مقابلات مع الأمين، حمدت الله.

تناولنا الغداء وتطرقنا بالحديث إلى مكالمة حسام منها إلى أن غدًا هو اليوم الأول ليارا في الروضة القريبة من المنزل، وعلينا ابتياع بعض الملابس المناسبة لها من أجل ذلك، أيضًا تحدثت عن عملي الجديد وطلبت سمر مني العمل فلم أعترض كما كنت أعترض مسبقًا، فقط اشترطت بأن أكون أنا من يجد لها العمل المناسب، وافقت على الفور.

في المساء ذهبنا للتسوق. اعتدت التحكم في أعصابي وأنا بصحبة سمر أثناء التسوق خاصة في الجزء الذي يخص الملابس. لا تترك متجرًا إلا ودخلته ومررت أصابعها على جميع المعروضات قبل أن تغادر دون ابتياع شيء. فقط تخبرني:

ـ فكرني إن الفست الأخضر ده أكتر حاجة عجبتني لغاية دلوقتي موجود عند....

ثم تنظر قليلًا إلى الأعلى على اسم المتجر قبل أن تضيف:

ـ DEEP BLACK.

قبل أن تكمل رحلة البحث عن متجر آخر دون الحصول على رد مني، فقط تدون الملاحظات في عقلي؛ لينتهي بي اليوم غارقًا وسط أكوام من حقائب الملابس تحمل علاماتٍ تجارية لمتاجر مختلفة متوسلًا كي أصل إلى السيارة في سلام دون أن أنكب على وجهي، لأقابل بنظرة تحمل أنواع متعددة من الشفقة:

ـ معلش يا حبيبي.. أنا والله والله مأخدتش راحتي عشان مش أتعبك أكتر.

نطقتها وهي ترى حالتي التي يرثى لها، بالكاد يظهر عنقي وسط أكوام الحقائب بالخلف:

ـ واجب برضه يا أختي، نسيتي تقوليلي إنك جيبتي حاجات مش مقتنعة بيها وممكن متلبسيهاش.

ـ يا ساتر على غلاستك.

أخرجتها في دلع بعد أن استشعرت سخريتي منها. احتميت بالأكياس من الأمطار التي ضربت المكان بغتة، وأنا أهرول صوب السيارة بعد أن حصلت على جميع الأشياء المدونة لي:

« كف مريم.حب حرمل.محلب.شبح زعتر.لبان دكر.ملح دروس. شبّة زفرة.كمون أسود. كسبرة.ماء ورد»

تساءلت وأنا أحصل عليها عن مدى جدوى تلك الأشياء؟ جميع المكونات متوافرة. لا شيء غريب أو محرم من عينة الأشياء التي تجدها في المتاجر داخل «حارة دياجون» في أفلام الساحر، تلك الأشياء التي تجعل من العطار جهازًا للفحص قبل أن تتبعه في الظلام داخل سرداب خفي مليء بالأشياء العفريتية، بودرة عفريت مستحماش غير في العيد، عصارة معدة التنين على الريق، سن فيل يتيم مولود في الكونغو، أو ربما حواوشي بالجزر. فقط أي شيء غير معتاد، هذا ما دار بخلدي عندما أمسكت الورقة للمرة الأولى قبل أن أفاجأ بأنها أشياء متداولة وتتوافر لدى الجميع، فقط ينقص الميعة السايلة. علمت بأنها تتواجد عند ذوي الأصول السودانية من العطارين، ترك الأمر علامات الاستفهام تتشابك في رأسي. لم لا يحصل عليها الآخرون؟ لم أكن أعلم جيدًا الطريقة التي من خلالها أبحث عن عطار سوداني سوى بسيارة بيجو سبعة راكب، بالإضافة إلى مكبر صوت.

«ويا أهل الإسكندرية الكرام، عطار سوداني الله يبارك فيكم»

بإمكان عم جلال تدبر أمر البحث عنه لاحقًا، قبل أن أصل إلى

السيارة ضربتني موجة من الرياح استهدفت أحد الأكياس في يدي لتطرح محتوياته أرضًا. سمر ويارا يستمتعان بالمشهد من النوافذ. أسمع أصوات الضحكات تأتي من خلف الزجاج، بينما أنا أستمتع وأنا غارق في الوحل. أجمع المحصول من الأرض.

***

٤

جعلني الصداع الذي ألم بي غير قادر على التركيز، تناولت بعض أقراص الأسبرين دون ماء. المرارة سكنت حلقي تعث فيه الفساد، اختفت واختفي معها الصداع في اللحظة التي ظهرت بها سمر في الردهة بعد أن أغلقت باب غرفة يارا بإحكام خلفها، تمتلك مفعول أقوى من مفعول الأسبرين أحيانًا، كانت ترتدي قميصًا أسود اللون بالكاد يغطي خصرها؛ ليجعل الظاهر من جسدها فقط هو مصدر الضوء مع تلك الإضاءة الخافتة التي تأتي من الجزء الآخر للصالة:

ـ مش سقعانة؟!

ـ تؤتؤ.

قالتها وهي ترتمي بجسدها على كنبة الأنترية التي أجلس على طرفها لتجعل من قدمي وسادي أسفل رأسها:

ـ بتفكر في أيه يا بابا؟ أكملت.

ـ كان عندي صداع، موقف تفكيري.

ـ كان!

ـ الصداع راح.

ـ وتفكيرك؟!

ضحكت:

ـ ناويه على أيه؟!

رفعت حاجبها الأيسر:

ـ يوه، وأنا كلمتك.

ـ بكرة عامل إزاي؟ غيرت مجرى الحديث.

عضت على شفتيها وارتفعا حاجبيها وهي تهز رأسها في لامبالاة:

ـ مش أعرف، الست جواهر هتيجي الصبح.

ـ و يارا؟ تساءلت.

ـ حضانة يا قلبي.

ـ حاسك مش قلقانة. أخرجتها متعجبًا.

ـ هأقلق وأنا معاك! ردت التعجب.

أكملت:

ـ أنت قلقان؟

ـ لا. كذبت.

***

استدعاني النباح المزعج لجرس الباب من نومي، استغرقت دقائق قبل أن أدرك الشعور بما هو حولي، كنت منكبًا على وجهي نصف عاري في غرفتي، الوسائد بأكملها توزعت على الأرض حول السرير لم تكن بأفضل حال من الفراش بالأعلى، كان ريقي يقطر صبارًا، عظامي سحقت حتى استوت بالمرتبة في الأسفل، أصابتني قشعريرة لا أدري سببها؛ برودة الجو بالخارج أم إنها البرودة التي خلفت نيران

الليلة السابقة؟ لا أتذكر من ليلة الأمس سوى أن سمر فضلت ألا نزعج يارا بالمبيت معها بالغرفة، من قال بأن في الحمام وحده شيطانًا، غرفتي أيضًا تعج بالمزيد.

مشيت وصوت احتكاك قدماي بالأرض يخبر الجرس الذي عاود النباح مجددًا بقدومي، تناولت جاكيت البيجامة المعلق في ظهر الباب ارتديته لم أكلف نفسي عناء غلق الأزرار، اكتفيت بربط الحزام على بطني، في المرة الثالثة التي نبح فيها الجرس كانت يدي تمتد إلى مقبض الباب.

توقعت أن أجد العدم أيضًا هذه المرة لكنني واجهت الأغرب، وقف أمامي شخص يمتلك جسدًا هزيلًا، وله شعر أصابه العمر حتى أتى عليه الأبيض بلا هوان، يرتدي ملابس رسمية تذكرت معها محصل تذاكر الترام، يحمل على جانبه الأيمن حقيبة متوسطة الحجم، لها حزام يأتي مائلًا من الكتف في الجانب الأيسر، سمر تحب اقتناءهم تقول بأنها تُدعى «كروس».

- بوسطة.

عرف بنفسه قبل أن يضيف:

- شقة ٢؟

فكرت في نفسي وأنا أجيب عن كون تلك الوسيلة القديمة في إرسال الخطابات، ما زالت رائجة ومن هو ذلك الذي يراسلنا؟ ألا توجد بالأسفل صناديق خشبية للبريد القادم بعدد الشقق بالعقار.

- شقة ٢. أكدت له.

أخرج من الحقيبة مظروفًا قبل أن يناولني إياه مضيفًا:

ـ هستأذن حضرتك توقعلي هنا.

كان يخرج ورقة أخرى من الحقيبة ممسكًا بقلم فرنساوي أزرق، بالكاد مرت كلماته إلى أذني، بعد أن نظرت إلى ظهر المظروف، تغيرت جميع التعبيرات في وجهي دون إنذارٍ مسبق، جمدت كل المحيطات من حولي، انتابتني رعشة داخلية وأنا أنظر مليا متأكدًا مما كتب على ظهر الخطاب، أغلقت عيني وفتحتها مجددًا، ربما تأثير النوم لكنها ظلت كما هي:

ـ ده أيه ده يا أستاذ؟! تساءلت في انزعاج.

واجهني بارتياب قبل أن يجيب:

ـ ده جواب حضرتك.

ـ ما أنا عارف يا سيدي إنه جواب حضرتي.

صحت غاضبًا:

ـ جيبهولي أنا ليه، لما هو جواب حضرتي؟ كان صوتي أعلى وأنا أضيف.

كانت ملامح الرجل بدأت في اكتساب المزيد من الارتياب وهو ينظر إليّ، توقعت بأنه يشكك في قواي العقلية الآن، استشعرتها من تعبيرات وجهه:

ـ حضرتك أنا جيبت الجواب؛ لأن..

ـ يوسف باشا.

قاطعه صوت ذلك القادم من الأسفل وهو يضيف:

ـ فيه غلطة يا باشا.

وصل عم جلال حارس العقار في الوقت المناسب، لو كان تأخر قليلًا كان سيحدث ما لا يحمد عقباه، بالتأكيد كنت سأسحق عظام أحد ما اليوم.

ـ في أيه يا عم جلال؟ مين المجنون ده؟ أخرجتها في غضب.

ـ كل خير يا باشا، أنا هوضحله الغلطة.

قالها وهو يجذب الساعي كقطعة الشطرنج التي تتزحزح عنوة، كانت نظرات الساعي غاية في الغرابة أيضًا؛ عم جلال جذبه في تصرف فيه عدة أنواع من إثارة الريبة كمن يحاول إخفاء أمر على وشك أن يوشي به:

ـ هطلعلك تاني يا باشا بعد ما أمشيه، ثواني.

كانا بالفعل قد قطعا نصف الطريق إلى الأسفل، هبدت الباب في عنف وأنا ألقي على طاولة السفرة مظروفًا كُتب على ظهره:

«يسلم إلى يد

د/خالد محمد منصور

مدير عام مستشفى العباسية للصحة النفسية

عقار ٨٢٤ طريق الحرية - رشدي - الإسكندرية»

وقفت في الشرفة مراقبًا لذلك المخبول بالأسفل الذي نظر صوبي وضرب بيديه كفًا على كف قبل أن يعتلي دراجته ويسلك طريقه

صوب وجهته القادمة.

نبض غريب كان يسري في عروقي، الأدرينالين ضرب جميع أوردتي، تسارعت أنفاسي، تعجبت من السبب الذي جعل جسدي يفرز الأدرينالين في لحظات لا يسودها الخوف، هل هو الغضب! أجل إنه هو. لا شيء يدعو إلى الخوف الآن، أيضًا لا شيء يدعو إلى إفراز تلك المادة لا وقت لمزيدٍ من الأشياء المتطفلة حتى و إن كانت بداخلي. قُضي الأمر اليوم سأحمل رسالتي بنفسي إليه. سنرى كيف سيمتنع عن استقبالها؟

كان مشهد سمر في الأسفل تركن السيارة بمحاذاة الرصيف أمام بوابه العقار، هو الأمر الذي أخرجني من نوبات التفكير، تساءلت عن سبب عدم تركها للسيارة في الجراج كما هو المعتاد، أتت الإجابة على شكل هرولة من عم جلال إلى نافذة السيارة، التقطت سمر ورقة مطوية تشبه تمام الورقة التي أرسلها الأمين لنا من قبل، تراجعت للخلف قليلًا في الوقت المناسب؛ كي لا يلاحظا وجودي. في اللحظة التي صاحبت عودتي للخلف كان عم جلال ينظر إلى الأعلى متأكدًا من عدم وجود من يراقبهم قبل أن يمد يده يلتقط الورقة التي أخفاها في جيب سرواله الخلفي. بعدها انطلقت سمر مجددًا وهو يلوح بذراعه قائلًا بصوت مسموع من هنا:

ـ مع سلامة الله يا هانم.. مع السلامة.

قبل أن ينظر إلى الأعلى مجددًا، لم أتراجع هذه المرة وقفنا محدقين كلًا منا إلى الآخر قليلًا، بعدها انسحبت إلى الداخل.

***

ـ أنتي فين يا سمر؟!

حاولت التحكم في نبرة صوتي، من الجانب الآخر أتاني الصوت بليونة:

ـ الناس بتصحى تقول صباح الخير يا قلبي.

ـ أنتي فين يا سمر؟! كررتها.

ـ حبيبي، في أيه يا بابا؟! أنا كنت بودي يارا الحضانة، وفي الطريق أهو عشان أجيب الست جواهر، أيه اللي حصل؟

ـ محصلش.

أجلت المواجهة قبل أن أردف:

ـ صحيت ملقتكيش جنبي، قلقت. كنت أصطنع الهدوء.

ـ قلبي يا ناااااس، مش ها غيب يا حبيبي، خمسة وأكون قدامك.

ـ براحتك.. باي. نطقتها في روتينية.

ـ باي يا بابا.

لم أستطع طرد نظرية المؤامرة التي حازت تلك المساحة في عقلي بأكملها، الخيوط جميعها تثبت صحة حدثي. الجميع يقف بالمرصاد أمام عودتنا إلى هنا من جديد بدعوى أن العقار مسكون. أمام إصراري الشديد على العودة تُظهر سمر لي فروض الطاعة والولاء.

ـ تحبي نرجع إسماعيلية؟ سألت.

ـ أنت مرتاح فين؟

ـ مرتاح هنا.

ـ أنا راحتي في راحتك.

عدة مشاهد وكلمات معسولة معدة مسبقًا، حتى تزيد قناعتي بكونها في جبهتي في ذات الوقت تقوم على عيني بتفتيت الجبهة، إظهار أن العقار مسكون بالفعل، الدجالة الغريبة التي سلكنا طريقًا غريبًا كي نصل إليها والابتسامة خلف ظهري بينهما في الردهة ونحن نتجه إلى الأعلى، اللامبالاة ليلة الأمس:

ـ حاسك مش قلقانة. أخرجتها متعجبًا.

ـ هقلق وأنا معاك. ردت التعجب.

الورقة المماثلة لتلك التي في جيب سروال الخائن بالأسفل، بالإضافة إلى تعبيرات وجهه أثناء وجود الساعي أمامي، ربما كان ذلك الساعي من سيقوم بكشف الأمر لي قبل أن يظهر «الأمين» ويجذبه للأسفل، أسلوب رائع كي يخيل عليَّ الأمر، ربما هم طامعون في الثروة التي ستعود عليهم من عملية بيع الشقة، يتم إقناعي وبمباركتي بوجود آخرين في الشقة، تترسخ لدي فكرة الخلاص من المكان، لكن لا بد من بعض البهارات كي لا أفكر في العودة.

الصغيرة لنا. يارا. نقطة ضعفي التي سأبحث عن خلاصها وبعد أن نتخلص من اللعنة نفر جميعًا وأنا مقتنع تمامًا بأنه الحل السليم.

ـ أنا بحبك أوي يا يوسف.. أوي.. أكتر من أي حاجة في الدنيا.. أنا مستعدة أمشي معاك للآخر وأنا مغمضة بس كون كويس عشاني. أنا مش عايزة حاجة من الدنيا غيرك يا يوسف.

لهذا السبب فرت إلى الصالة في الحادثة الأخيرة؛ كي تعبث بمفاتيح

البيانو قبل أن تعاود الظهور بدور المخلِّص من الأشباح. حبكة رائعة. يستحقون جائزة الأوسكار جميعًا. أعتا الجيوش يجب نشر الطاعون بها أولًا على يد جنودها قبل أن تُقتحم. دائمًا ما تأتي الطعنة في الظهر من أولئك الذين ائتمنتهم على حمايته، تنشغل بمواجهة أسهم الأعداء وتنسى أمر الأسهم التي تُسن على مرأى منك. سيتوافر لدي دليل ملموس في المساء على الأرجح.

***

سرت دفقه من التيار الكهربي عالي الضغط في جسدي فقدت بعدها الشعور بأوصالي التي تجمدت. سحقت أضلعي من الألم وأنا أغوص في الماء البارد، الاسترخاء في حوض الاستحمام شعور افتقدته منذ أن قامت اللعينة بإغلاق الحمام الذي فتحته للتو. أين الأمين ليرى العابث في مملكته؟

لا يوجد أمين. ملأت رئتاي بالهواء. حبسته في صدري. وغصت برأسي تحت الماء. كانت برودة المياه قاتلة للحد الذي أمتعني.

الكميات المضاعفة من الألم كفيلة بالقضاء على جميع المشاعر الصادقة تجاه نفسك قبل الآخرين.

تجردت من مشاعري..

ثم فتحت سدادة الحوض لتذهب مع الماء..

خرجت بلا مشاعر..

***

عندما عادت اللعينة بصحبة الممثلة المتواطئة معها، كان هناك ثمة شيء مختلف في تعبيرات وجهها عن المرة السابقة؛ كانت أكثر حيوية ذهبت الرهبة. جهزنا المكونات المطلوبة بعد أن استطاعا الحصول على الميعة السائلة كما ادعيا. مزجتهم الممثلة في صينية متوسطة الحجم باستثناء ماء الورد قبل أن تأمرنا بغلق جميع النوافذ وإغراق جميع جنبات المنزل في الظلام، بعدها أشعلت النيران في المزيج وراحت تجوب به جنبات المنزل وهي تتمتم ببعض الكلمات غير المفهومة، بدا على وجهها التركيز والتوتر. شاركتها مصطنعًا. إلى أن وصلت إلى الحمام.

- يوسف، اتفتح إزاي ده؟ أتى صوت سمر منزعجًا.

- بالمفتاح.

أجبت ساخرًا، بعدها أكملت:

- كنت عايز آخد دش.

تبادلا النظرات في قلقٍ، ذبلت الحيوية بغتة من وجه سمر. كاد الارتباك أن يعصف بمخططهم كله. همست الست جواهر إذا ما افترضنا أن ذلك اسمها حقًا:

- محصلش أي حاجة؟

- وهيحصلي أنا ليه، هما مش جايين للصغيرة. أخرجتها ساخرًا.

بدت مسحورة بما قلت. لم أستطع تخيل السبب. أومأت برأسها في استسلام بعد أن ذهب الارتباك والتوتر أدراج الريح. تأكيدًا تظن الآن بأنني ما زلت مقتنعًا بما يريدان إقناعي به. بعد أن فرغت

من الخزعبلات التي تقوم بها. ذهبت للخارج. اتبعناها في صمت، جلست في الأرض وأمرت بإحضار زجاجة ماء الورد المستثناه من المزيج. أحضرتها سمر وناولتها إياها. ظلت مغمضة العينين كانت تقرأ شيئًا وهي ممسكةٌ بالزجاجة. لم نسمعه. استمرت عدة ثوان على ذلك الوضع قبل أن تنظر إلينا مجددًا:

ـ الميه دي تستحمى بيها بنتكم، وبعدها خلاص تقدروا تمشوا من هنا.

ـ وكتاب الله؟! سخرت.

نظرا إليَّ بارتياب، لم تأتِ إحداهما ببنت شفة، اكتفيا بالصمت والنظر فقط في انتظار أن أعطيهما المزيد من الكلمات من خلالها يصل إليهما ما أرمي إليه حتى لا يقدما على رد قد يندمان عليه لاحقًا. أكملت:

ـ يعني خلاص كده؟! هنمشي، ألف حمد وشكر ليك يا رب.

كان من الصعب التحلي بالجدية، لكنني حاولت قدر المستطاع، ما توقعته وجدته ابتسمت سمر، أيضًا الست جواهر انفرجت شفتاها بابتسامةٍ قبيحة، تناولت منها سمر الزجاجة. وضعتها على الطاولة. قبل أن تصطحبها إلى الأسفل بعد أن أخبرتني بأنها ستعيدها ومن ثم تحضر يارا من الحضانة. وعليَّ أنا تجهيز أغراضي استعداد للسفر صباح الغد. ابتسمت ابتسامة هزلية وأنا أرافقهما إلى الباب قبل أن أغلقه خلفهما. كنت بحاجةٍ إلى تلك الابتسامة الصادقة التي آتتني بعدما أسندت ظهري إلى الباب.

عندما جهزت سمر الحمام من أجل يارا. قررت أنه آن أوان كشف الأمر برمته. في اللحظة التي أغلق فيها باب الحمام كنت أنا ممسكًا بهاتف سمر المحمول بين أصابعي مقلبًا في البريد الوارد. لم أجد ما يدعو إلى الريبة، بحثت في جميع التطبيقات التي تمكنها من التواصل مع الآخرين، حتى وجدت ضالتي، ازدادت الظلمة بشكلٍ مفاجئ وأنا أتصفح الرسائل في محادثة خاصة بينها وبين حسام، كانت المحادثة أمامي تحمل تاريخ اليوم، لا يوجد محادثات تحمل تاريخ آخر وهو ما جعلني أفكر في كونها تقوم بمسح المحادثات أولًا بأول ولم يتسن لها الوقت بعد لمسح محادثة اليوم، كانت برودة الجو تزداد طرديًا مع عدد الرسائل التي قرأتها حتى وصلت للجزء الذي عصف بي:

ـ ربنا يخلصك من الكابوس ده يا سمسم، والله ربنا يكون في عونك واحدة غيرك كان زمانها اتطلقت من زمان.

ـ هانت وهخلص منه خالص، الخطة ماشية زي ما إحنا متفقين بالظبط، واقتنع خلاص إننا لازم نمشي.

ـ دماغك جبارة يا سمسم.

ـ ههههههههههه، ادعيلي يا حسام والنبي، ربنا يخلصني منه على خير ده همْ وكاتم على مراوحي.

ـ بدعيلك والله، أنتي بنت حلال وتستاهلي أحسن من كده بكتير.

لم أدري كيف حملتني قدمي إلى المقعد الأقرب لي، أظلمت الدنيا من حولي، غرقت في الظلام. كانت أنفاسي تأتي على شاكلة أشواك

تجتث من حلقي، سرعان ما أصابني الدوار سرت مترنحًا ورأسي تعج بالمئات والمئات من الأفكار، أعدت الهاتف إلى سابق موضعه، حاولت التحلي بالهدوء قدر المستطاع. لكن فكرة خيانة سمر لي وتدبيرها من أجل الخلاص مني ظلت تطاردني. مضغت عدة أقراص من الأسبرين في مواجهة الصداع الذي تمكن مني بغتة. حاولت تنظيم أنفاسي. لم أفلح، فاستلقيت على الكنبة مفتقدًا للشعور بجسدي. الدماء ما زالت تهرب من أوردتي. بعد عدة دقائق استطعت التحكم في أنفاسي مجددًا. حاولت طرد الشعور بالغضب الذي انتابني وجلست في صمت.

عندما شرعت سمر في تحضير العشاء، كانت يارا تجلس تشاهد أحد أفلام الأنمي التي تعرض على التلفاز، دلفت إلى المطبخ وجذبتها في عنف من معصمها؛ توجعت غير مستوعبة للأمر وأنا أقودها إلى الغرفة قبل أن أقوم بإفلاتها دافعًا إياها لتصطدم بالسرير الذي ارتجف من أثر قوة سقوطها عليه، كانت ما زالت في حالة صدمة ويبدو على وجهها الانزعاج الشديد:

ـ يوسف في أيه يا يوسف؟!

كانت كلماتها مصحوبة بقدر كبير من الخوف:

ـ هقولك في أيه حاضر.. اصبري عليا.

قلتها متوعدًا، بعدها ألمتني يدي من أثر الصفعة التي تلقتها مني على صدغها؛ لتنفجر في البكاء غير مدركة لما يحدث، كانت مندهشة حقًا، لو لم أرى بنفسي لكنت أجزمت بأن نظرة الاندهاش تلك تأتي

من شخصٍ لا يخفي شيء.

ـ بقا أنتي تخو...

قاطعتني صوت خبطات عنيفة على باب الشقة وصرخة يارا بالخارج، جذبتها من شعرها إلى باب الغرفة:

ـ أطلعي هاتي الورقة، البيه اللي تحت جابها أهو.

توقفت عن البكاء، لقد فهمت ما يحدث وأكدت لي بأنني على حق، تركت شعرها من يدي لتسقط أرضًا وعدوت إلى الباب، تجاهلت الورقة المطوية بأسفله، فتحت الباب وأغلقته خلفي ظللت واقفًا في الظلام حتى سمعت أصوات تهبط الدرج من الأعلى في حرص شديد، ما أن أصبح على بعد خطوات مني حتى جذبته من عنقه ودفعت الباب بقدمي بقوة ليفتح بصوت دوي ارتطام يصم الأذان وأنا أجذب في يدي حارس العقار إلى الداخل، كان مستسلمًا، شعرت مع استسلامه بأنه كالدمية بيدي. وجهت له عدة لكمات لم يدافع عن نفسه ربما لم يكن متوقعًا. بعدما أفلته دفعته إلى الخارج وأنا أصيح بغضب:

ـ قدامك نص ساعة تكون لميت عزالك وماشوفش وشك هنا تاني، برررررة.

أغلقت الباب في عنف، التفت مواجهًا لسمر ويارا كانت سمر تبكي لكن هذه المرة بدون أن تُخرج صوتًا، لقد علمت بأن خدعتها كُشفت، مظهر يارا هو الذي جعلني أتحكم في أعصابي قليلًا كانت على حافة الانهيار، ذهبت صوب منضدة الصالون التقطت هاتفها،

أحضرت المحادثة بينها وبين حسام قبل أن ألقي الهاتف نحوها. التقطته. نظرت إلى المحادثة. صار وجهها بارد دون تعبير، توقفت عن البكاء وحدقتاها زادتا في الاتساع بينما ظل فمها مفتوح في رعب:

ـ يوسف الموضوع مش زي ما أنت فاهم.

تلعثمت مدافعة. قاطعتها في هدوءٍ:

ـ أنتي طالق.

***

آلام السيد يوسف

في الليالي حالكة الظلام، يُفتقد البدر.

١

مرت الأيام وأصبحت أسابيع منذ أن رحلت سمر إلى أن مضى فبراير يتبعه مارس على مضض، أتى أبريل تزينت الشوارع بالألوان استعدادًا لاستقبال أعياد الربيع، شعرت بالدفء وأنا أراقب العائلات في طريقها للاحتفال، تمنيت لو أنه كان بإمكاني مشاركتهم، أفتقد عائلتي، حاولت طرد الفكرة من رأسي، لم أفلح في ذلك، الطقس لم يتحسن بعد ما زالت تمطر على فترات متفاوتة، لكن برودة الجو تواصلت بصفة مستمرة منذ رحيلها.

بالكاد تظهر أرضية الصالة أسفل كومات من علب البيتزا الكرتونية وزجاجات المياه الفارغة، غطت الأتربة الأثاث كله باستثناء المقعد في الشرفة وكنبة الأنترية اللذين أنظفهما بملابسي يوميًا، طالت لحيتي وشاربي حتى أصبح الشعر يخفي نصف وجهي الأسفل، بينما ساعد شعر رأسي في زيادة طول قامتي بعض السنتيمترات، عزلت نفسي عن العالم الخارجي، تجاهلت جميع المكالمات الواردة إلى هاتفي كانت أغلبها تحمل رقمي محمد فتحي وحسام، لم أستخدم هاتفي سوى في طلب الطعام. كل ثلاثة أيام أتناول وجبة تمد جسدي ببعض الطاقة؛ كي أقوى على مواجهة ثلاثة ليال عجاف بلا نوم، لم أكن أتناول سوى البيتزا هذا فيما مضى، الآن أبدلتها بعلب البسكويت بعد أن أوشكت نقودي على النفاذ، امتنعت أيضًا عن شرب المياه المعدنية في محاولة يائسة لتأجيل موعد إفلاسي الذي سيحدث عاجلًا أم آجلًا،

طاردتني الكوابيس من آن إلى آخر، جميعها تتعلق بها. أقف في بركة تعكر مائها الذي يصل إلى صدري، الفقاعات من حولي تمتلئ بها المياه التي تأخذ حرارتها بالارتفاع أشعر بها تحرق جسدي، الوحل بالأسفل يكبل قدماي. أحاول الاستنجاد تضيع محاولاتي هباء، لا يوجد أحد لنجدتي، أدقق النظر حولي كنت في غابة أسفل الأشجار بعيدًا تجلس سمر يستقر في ظهرها سكين. أصرخ كي تنجدني. يصل إليها صوت استغاثتي. تلتفت إلى من ثم تبتسم قبل أن تنكب على وجهها مفارقة للحياة، دومًا كوابيس مزعجة إلى أن عزفت عن النوم طواعية، عندما كنت أغفو من الإعياء كانت غفوتي تمر بسلام دون رؤية المزيد، غرقت في الظلام حتى عندما كان يأتي المساء كنت أتخذ طريقي متعثرًا في أكوام القمامة التي يعج بها المكان، أجلس مراقبًا للمارة في الخارج في الظلام، أيضًا كانوا المارة بالخارج يراقبون العقار أثناء مرورهم به، عندما كان يدقق أحدهم النظر إلى العقار، كنت أستمتع وأنا أرى نظرات الفزع على وجهه حين يراني في الظلام بعد أن أظهر له نفسي متعمدًا، قبل أن يفر هاربًا. حسب الجميع أن المكان هُجر مجددًا، وساعدهم الظلام وتحبيذي للعزلة على الاقتناع بأن الأشباح عادت لتسكن المكان مجددًا.

بارعة أنت يا سمر. أقنعتي نصف مواطني الإسكندرية بكذبتك، وها هو تلميذك يقنع النصف الآخر، ضيق أفقك صور لكي أنني مثلهم وستنطلي عليّ حيلتك، انزعجت، هل نسيت كوني أتعامل يوميًّا مع مجموعات من المرضى الذين يلفقون الأكاذيب ومن ثم يصدقونها؟! أنا فقط من يكشفها، أنا المعالج النفسي. في زمنٍ يُولد

به المرء مريضًا نفسيًا.

عدت من شرودي ملبيًا لنداء الطبيعة ، أصبحت أكثر مهارة في تجنب الاصطدام بالأشياء في الظلام وصلت إلى الحمام. تحسست الحائط وجدت مفتاح الكهرباء. أصابتني الإضاءة المفاجئة من الأعلى بالعمى المؤقت. لقد نسيت شكل الضوء. أسعى للحصول على هراوة وبعض أوراق التوت كي أستر عورتي وأنا أبحث عن كهفٍ يناسب إنسان الغاب الذي أصبحت عليه. فتحت سحاب سروالي ووقفت مواجهًا للمرحاض منتشيًا وأنا أفرغ الحمولة الزائدة عن حاجتي من النشادر متبرعًا بها لوزراة «البكبورتات»، كنت أواظب على فعل الخير. لم أكتفي بتقديمي للمعونة على هيئة نشادر فقط أحيانًا كنت أتغوط لهم. سيقدرون لي هذا المعروف مؤكدًا. ربما سيطرح اسمي ضمن المرشحين لمنصب وزير»البكبورتات»؛ لما لي من مساهماتٍ في سد العجز العام للميزانية من حصتي الشخصية. ابتسمت وأنا أتخيل نفسي أؤدي اليمين دون أن أنطق القسم، قبل أن تجد يدي مقبض السيفون؛ ليأخذ تبرعي الطريق إلى مستحقيه.

كدت أن أتقيأ وأنا أتذكر عزوفي عن تناول المياه المعدنية ولجوئي إلى وزارتي التي أُنشئت منذ قليل كي أرتوي من صنابيرهم. تبًا. ارتسمت في مخيلتي المراحيض في جميع المنازل تربط بينها شبكة عنكبوتيه. كل مرحاضٍ يصب في صنبور منزلٍ آخر. تبادلاً للصنابير. اليوم رويت، غدًا أرتوي. كما تُصنبر تتَصنبر.

استطعت تمييز صوت حجر دلف إلى الداخل عبر النافذة وجدته

على ضوء هاتفي. اتخذت وضعية هجومية تسمح لي بدقة التصويب على الهدف بعدها تواريت عن الأنظار خلف الشيش، وأعدته إلى رأس مرسله الذي ظل يصرخ وهو يعدو:

ـ عفررررررريت.. عفررررررررريت.

كانت هواية طبقة كبيرة من المعاتيه، إثارة غضب العفاريت في الأعلى كانوا يفلحون في ذلك، لكن غضبي كان يذهب في تلك اللحظة التي أرى فيها تعبيرات الهلع بادية على وجوههم البلهاء.

أبدلت سروالي وارتديت قميصًا آخر قمت بكيِّه خصيصًا من أجل لقاء اليوم، تفقدت محفظتي جيدًا. لا زلت أملك بعض الجنيهات يمكنني تدبر أمري بها حتى نهاية الشهر، إذا لم أحصل على سلفتي من المستشفى اليوم، اتجهت إلى الصالة. كنت بحاجة إلى الإضاءة من أجل البحث عن المظروف، أستغرق الأمر مني بعض الوقت حتى وجدته، وقعت عيناي على الصورة الأولى والأخيرة لنا مجتمعين سمر ويارا وأنا بالإضافة إلى تلك البوكا التي فضلت البقاء معي، تحكمت في دموعي التي تكونت داخل عيني قبل أن تسيل على وجنتاي.

***

أضاع لي الترام نصف الساعة قبل أن أصل إلى محطة الرمل، أتذكر المرة التي استقللت ترامًا قبل هذه المرة كان لا يزال ثمن التذكرة خمسة وعشرين قرشًا فقط، دفعت لي داليا يومها، أين أنت يا داليا الآن فقد زادت ثلاثة أضعاف.

اتجهت إلى العنوان الذي أحفظه عن ظهر قلب، كنت أحصل على

انتباه طفلة بصحبة والديها كانت تنظر إليَّ مشمئزة وأنا أنعطف إلى أحد الشوارع، أخرجت هاتفي الذي لم يتوقف عن الرنين. رفضت المكالمة. نظرت إلى وجهي في الكاميرا الأمامية، معذورة تلك الفتاة، كنت سأحسبني مخبولًا بذلك الشعر غير المهندم واللحية الغبية التي تنبت من الأسفل فقط في مظهرٍ يؤذي العينين، إن كنت أرتدي جلبابًا قديمًا وأجول حافيًا.

ما إن انعطفت إلى الشارع الأخير حتى واجهني عقار يحتفظ بالطابع الروماني الذي ما زال يطغى على معظم مناطق الإسكندرية القديمة، كان العقار يتكون من ست طوابق جميع شرفاتها تميز بلوحات تحمل أسماء العديد من الأطباء في مختلف التخصصات الطبية، لم أكلف نفسي عناء قراءة أسماء أنا أعلم وجهتي جيدًا، بالأسفل يوجد صيدلية حديثة العهد لم تكن متواجدة فيما مضى، مررت بها قبل أن أدلف إلى العقار، أعشق ذلك الأسلوب في التشييد إنه يسحرني، كانت الدرجات من الرخام الأبيض إلى المصعد قديم العهد يتكون من الخشب خلف بابٍ من الحديد المشكل، فضلت صعود الدرج ، كانت تنتابني رهبة من ركوب المصاعد أيضًا.

وصلت إلى الطابق الثالث تجاهلت عدة أبواب مفتوحة حتى وصلت إلى الباب الأخير في الردهة. في الداخل كان المكان يعج بالمرضى يفترشون الأرض بعد أن امتلأت المقاعد بآخرين. تعجبت كل هذا العدد في عيادة واحدة فقط. لا بد وأن نسبة المرضى النفسيين ارتفعت أضعافًا عن سابق عهدها. اتجهت إلى شباك الحجز بعد

أن وجدت طريقًا إليه من حسن الحظ أن المرضى تركوه للمرور، وصلت أخيرًا. واجهت شابًا يبدو على وجهه بأنه في العشرينات من العمر يمتلك وجهًا رياضيًا طويلًا حاد الملامح أسفل شعرٍ ينساب للخلف في نعومة:

ـ مساء الخير.

تطلع إلى مظهري قليلًا:

ـ مساء النور يا فندم.. حجز ولا استشارة؟

ـ لا.. أنا عايز أدخل لدكتور خالد، موضوع شخصي.

ـ حضرتك قريت اليفطة برة؟! سأل متعجبًا.

ـ لو سمحت قوله دكتور يوسف محمد برة وعايز يقابلك.

كانت لهجتي حاسمة تردد معها الموظف قليلًا قبل أن يجيبني:

ـ بس حضرتك يا فندم مفيش دكتور خالد هنا، دي عيادة دكتور عمر إبراهيم.

انفعلت وأنا أضرب بيدي على الرخام أمامي:

ـ تاني الكدب ده؟! أنتو كلكوا متحدين ضدي ولا أيه؟ أنا عارف المكان كويس.

تجعدت جبهة موظف الاستقبال وهو ينظر إليّ مندهشًا، سئمت هذه الدهشة المصطنعة من الجميع، كان المرضى بدؤوا في متابعة الحديث. تركت الشباك واتجهت إلى الممر المؤدي لغرفة الكشف. قام الموظف سريعًا محاولًا منعي. صحت بغضب بعد أن قابلته

بدفعة في صدره ارتد على أثرها للخلف عدة خطوات:

ـ أوعى من سكتي بقولك، هادخله يعني هادخله.

استعد للانقضاض عليّ، لكن الباب من خلفه فُتح بعد أن وصل الصوت إلى الداخل جعلنا جميعًا نتابعه هو، كان يقف على باب الغرفة شخص آخر بالفعل، كان يرتدي نظارة طبية أشعث الشعر دل الأبيض الذي أصاب شعره بأن عمره يقارب عمر دكتور خالد، إلا أن الأخير كان أنحف قليلًا وأكثر طولًا من الواقف أمامي الآن يصيح في انزعاج:

ـ في أيه الصوت ده؟!

وقفت صامتًا من أثر المفاجأة لا أعرف كيف أتصرف، أتته الإجابة من الشاب الذي دفعته منذ قليل:

ـ ده شكله مجنون مصمم يدخل لدكتور خالد، وبيقول إننا متفقين عليه.

رفعت يدي في أسف وهممت بالمغادرة التفت إلى الخلف، أتاني صوت الطبيب من الخلف متعجبًا:

ـ أنت بتسأل على دكتور خالد محمد بتاع الأمراض النفسية؟!

استدرت على الفور. تشبثت بالقشة قبل أن أغرق إلى القاع:

ـ أيوه أنت تعرفه؟

نطقتها سريعًا مبتهجًا. اتجهت نحوه وأنا أكمل:

ـ أبوس إيدك خليني أقابله، بيتهرب مني.

لم أكترث إلى تلك النظرة الغريبة التي اعتدتها من الجميع، لا يوجد المزيد من الوقت ليضيع في محاولة تفسير تلك النظرة:

ـ أستناني.

قالها لى قبل أن ينظر إلى مساعده وهو يضيف:

ـ هات له كوباية مايه يا سيد، أول ما تطلع الحالة اللي عندي دخلهولي.

بعد أن أتت الماء وجدت أنني كنت بحاجةٍ إليها فعلًا، تناولتها وأنا أوجه الشكر والاعتذار إلى المساعد الذي قمت بدفعه منذ قليل حاولت توضيح الأمر له تقبل اعتذاري، لكنه ظل يكظم لي بعضًا من الغيظ، رأيته في نظراته بعد أن جلس على مقعده.

في الداخل كان هناك سرير للكشف، ومكتبة للكتب، ومكتب خشبي أمامه مقعدان تتوسطهما منضدة يعتليها إناء به بعض الزهور. جلست إلى المقعد الأقرب، كانت اللافتة تعرف الجالس أمامي بأنه:

أ. د / عمر إبراهيم البستاوي

أخصائي علاج القلب والشرايين وأمراض الأوعية الدموية

تحدث فاحصًا:

ـ أنت بقى مريض من اللي كان بيعالجهم، دكتور خالد وجاي فاكر إنه لسه موجود.

أجبته معرفًا بنفسي:

ـ دكتور يوسف محمد، أخصائي أمراض عصبية ونفسية.

قالها واثقًا:

ـ مش شايف إنك صغير حبتين على أخصائي دي؟

قلت متلعثمًا:

ـ أتنين وتلاتين سنة، دكتور في مستشفى العباسية ودكتور خالد مديري.

همس ضاحكًا:

ـ وأيه اللي عمل فيك كده يا دكتور يوسف؟

كان يشير بيديه إلى وجهي قاصدًا مظهري الذي ساء في الفترة الماضية:

ـ دى مشكلة أُسرية. أجبته.

كنت انساق في الإجابة على أسئلته مدافعًا. أُرغمت على ذلك كي أصل إلى دكتور خالد.

ـ قولتلي إن دكتور خالد مديرك، طب ليه ماقابلتوش في المستشفى.

ـ بيتهرب مني.

ـ آخر مرة شوفته كانت من إمتى؟

ـ أربع سنين تقريبًا، هو تحقيق يا دكتور؟! طفح الكيل.

عاد في مقعده إلى الخلف قليلًا وهو يواجهني بنظرةٍ غريبةٍ لم أستطع قراءتها:

ـ مش تحقيق بس بستغرب.. أنا واخد العيادة دي من سبعتاشر

سنة.

تأنى قليلًا في حديثه وهو يدق بقلم فضي في يديه على سطح المكتب:

ـ وشايل بأيدي اليفط بتاعت دكتور خالد.. اللي مات هو ومراته وابنه الكبير في حادثة قبلها بسنة.. يعني من تمنتاشر سنة مش أربعة يا دكتور.

تيبست في مكاني غير مصدق لما سمعت. حاولت أن أتكلم خرجت الكلمات هواء من حلقي. حاولتُ الاعتراف بالحقيقة التي سمعتها للتو. كان هناك جزء بداخلي يصدقها.

قمت من مكاني. بأصابع مرتجفة بلغت عنق الجالس أمامي. قبضت عليه:

ـ غلطة عمرك إنك قولت على دكتور خالد كده عشان أصدق كدبتكم.

أخرجتها وأنا أرى نظرات الفزع صادرة من الوجه الذي أصابه الزراق بسبب نقص تدفق الأكسجين إلى رئتيه:

ـ كدااااااابيييييييييين. صحت بغضب.

أفلته من يدي واتجهت إلى الباب وأنا أسمع صوت سعاله في الخلف لا يصدق كون قلبه ما يزال ينبض بالحياة.

***

٢

كرهت فكرة أن أرى العالم كله وقد تكالب من أجل خداعي، فأنا لا أهذي. جميعهم كاذبون. كرهت الأجازة، كرهت أيضًا ذلك العقار. كرهت الصداع الذي يشطر رأسي إلى نصفين الآن، صدمت جبيني بعنفٍ في الحائط، شعرت بالدماء الساخنة تسيل من أنفي بغزارة. ركلت علب البيتزا في الأرض بقدمي. رد صوت كرتونها أثناء انبعاجه عليّ، اعتبرتها وقاحة منه تغاضيت عنها. كان الغضب قد تملك مني. صرت أحطم جميع ما تطوله يدي من أثاث. اندفع الأدرينالين في أوردتي شعرت به. زاد قلبي في الخفقان وكأنما يريد الهرب من ذلك الصدر الغبي، أشعلت الأضواء جميعها. توجعت بصوتٍ تجاوز حدود العقار. بعدها دخلت في نوبةٍ من البكاء.

قمت متكئًا على الحائط. امتزجت دموعي بالدماء صارت تقطر على الأرض كلما خطوت تجاه الحمام، ترنحت حتى وصلت دفعت الباب بظهر يدي. لم يقاوم. واجهت صورتي في المرآة. كنت على حافة الانهيار، الدماء تغرق عنقي، وقميصي أصابته بقع حمراء أبدلت لونه الأبيض، شعري المجعد، جفون أُصيبت بالانتفاخ. كنت في حالة يرثى لها. فقدت الكثير من الدماء شعرت بانسحاب الأدرينالين. وضعت رأسي تحت الماء في محاولةٍ أخيرةٍ مني للعودة. فشلت. سحبت رأسي والماء ينصب منها مغرقًا الأرض من حولي، كنت في انتظار أن ينتهي الكابوس. تخبطت في طريق عودتي، كنت قد

وصلت إلى درجة متقدمة من درجات الهذيان. رأيت دكتور خالد أمامي، مددت يدي كي ينجدني. فجأة تجعدت بشرته تدريجيًا أصابه الشيب في ثوان تحول لون بشرته إلى الرمادي قبل أن تضرب جسده التشققات؛ ليتفتت ويسقط رماده أرضًا. حاولت التشبث بكنبة الصالون. سقطت بجوارها على ظهري ساحقًا لعشرات من علب البيتزا والزجاجات أسفلي. شعرت بتحسن بعد أن توقفت أنفي عن النزيف. أشعر بالدوار يخف تدريجيًا. ورأيته من بعيد.

تجسد أمامي الفتى مقتربًا نحوي من الردهة المؤدية إلى الحمام في اللحظة التي انقطعت فيها الكهرباء؛ لتتركنا غارقين في الظلام، بالكاد رأيته على الضوء القادم من الخارج كان ينظر إليّ بعينين متسعتين. كنت أجلس في الأرض حاولت التراجع للخلف والاحتماء منه، تراجعت قليلًا لكنني تسمرت بعد أن سمعت أصوات العزف على البيانو من خلفي. بللتُ ملابسي رعبًا. الوجه يقترب أكثر الفتى يصر على الوصول إليّ. حاولت رميه بما يقع تحت يدي. أصابته الفازة في المنتصف تمامًا أو لم تصبه، مرت عبره وتحطمت بعد أن اصطدمت بالحائط من خلفه. ضحك بصوتٍ متحشرج. كانت أصوات أقدامه تحتك في الأرض، تمنيت لو أنه أسرع قليلًا. كي يقوم بما هو مُقدم عليه. هذا القدر من الرعب يكفي. زاد العزف في الخلف، عزف شديد الإزعاج لن تحصل عليه في الواقع إلا لو جمعت مئات العازفين وطلبت منهم العزف في توقيتٍ واحدٍ دون التنسيق بينهم. كلٌ على هواه. انسحب الهواء من المنزل بغتة. نقص الأكسجين أصابني بالإعياء. أصبح العزف أكثر إزعاجًا. شعرت بيده تتحسس يدي ثم

جذبني إليه قليلًا. احترقت يدي في الموضع الذي لمسني منه. صرخت محاولًا النجاة: ـ أنت ميييين؟

لم أتوقع الرد، لكنه أتاني، كان صوته أقرب إلى فحيح الأفاعي:

ـ أنا ابن الدكتور اللي أنت بتدور عليه.

أفزعتني إجابته بالقدر الذي أفزعتني به فكرة كونه يتحدث، كان الفزع مصحوبًا باطمئنان نوعًا ما، لم يعد ذلك الشيء غامض بالنسبة إليّ، حاولت التماسك:

ـ إشمعنى أنا؟ أنا.. أنا معملتش حاجة.

تلعثمت رعبًا، لم أكن أدري بأن الرعب قادم في إجابته:

ـ الصغيرة.. بنتك ليا.. أنا عارف هي فين.

ختمها بضحكات جنونية. صرخت في فزعٍ:

ـ لالالالالا، يارا لا يارا لا.

العزف في الخلف توقف وأتى الهسيس من فمه الذي بدا وكأنه شُق عنوة بسكين حاد في ذلك الوجه البشع:

ـ فرحنا اتنين وعشرين خمسة، أنت معزوم.

كان يقصد يارا، نسبه الأدرينالين التي زادت بسبب الرعب كانت العامل المساعد لي للقيام بتلك الخطوة المتهورة، عدلت من قدمي بأسفلي ودفعتها في الأرض واثبًا نحوه محاولًا الفتك به، عندما سقط جسدي في البقعة التي يحتلها كان قد اختفي؛ ليتركني أواجه الأرض في الأسفل. عادت الأضواء مجددًا. حاولت القيام من موضعي.

ترنحت وسقطت. سمعت من بعيد أصوات العزف عادت مجددًا اعتدلت على ظهري كي أرى العازف. جثم فوقي قابضًا على عنقي ذلك الفتى. أصابت نوبة من التشنج جسدي. حاولت النجاة. طالت يدي مفرش المنضدة بجواري. جذبته. انهارت إلى الأرض عدة أطباق بها بقايا طعام أصابه العفن. كانت قبضته تحرق عنقي. تحشرجت وأنا ألفظ أنفاسي. كانت لحظاتي الأخيرة تمنيت لو أنني كنت واظبت على صلاتي، أيضًا تمنيت وجود سمر إلى جواري. ستغفر لي خطيئتي بالتأكيد بعد أن ألقى حتفي. نفذ مخزوني من الأكسجين. حبذت أن تكون نظرتي الأخيرة إلى وجه قاتلي الذي خشيت النظر إلى وجهه منذ أن عادت الأضواء.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها وجهه عن قرب. صعقت. بدا وجهه مألوفًا على نحو حاولت تكذيبه. لكنني فشلت.

إنه هو..

لم أنسى ذلك الوجه يومًا..

عاد بعد كل تلك السنوات؛ لينتقم..

علمت الآن لما يارا..

لقد سرقت منه طفولته، آن الأوان ليسرق طفلتي..

ابيضت الدنيا من حولي..

ومت.

***

٣

أضيئت الصالة قليلًا ببريق ضوء الفجر المتسلل من النوافذ، شعرت بنسمات الهواء الدافئة تلفح وجهي وأنا أستفيق، لم يكن مذاق الدم في فمي بمزعج، سال لعابي وأنا أمرر لساني منظفًا شفتاي، جميع النوافذ كانت مفتوحة جعلني ذلك أشعر بمدى اتساع المكان، تناثرت على الأرض حطم الأثاث التي حطمتها أثناء غضبي أو تلك التي حطمت من تلقاء نفسها في معركة البارحة. دققت النظر حولي باحثًا عن الوجه المألوف الذي ترك حمم الجحيم بالأسفل عائدًا كي ينتقم. يبدو وأنه في نوبة الراحة.

استعدت حيويتي. الأصح قويت على المشي. اتجهت إلى الحمام. فتحت الصنبور انسلت منه نقطتان ماء على استحياء قبل أن يصيبه العقم. لعنت شركة المياه ولم أنسى أن أوفي شركة الكهرباء حقها. أحضرت زجاجتي مياه من المطبخ اغتسلت بهم من أثر خيوط الدماء المتحجرة على جسدي، بعدها دلفت إلى الغرفة وقفت أمام دولابي. انتقيت قميصًا كروهات وسروالًا أسود اللون عوضًا عن القتلى المدفون جسدي بداخلهما، ارتديت زوج من الجوارب قبل أن أحشر قدماي في حذائي الأسود، تؤلمني أصابع قدمي عندما أرتدي ذلك الحذاء، لم أبالي الأمر اهتمامًا. ذقت من الألم ما هو أسوأ. إذا ما فكرت في كتابة مذكراتي يومًا ما سأنتقي لها عنوان «آلام السيد يوسف»

نظرت في ساعة يدي الموضوعة على الكمود، توقفت عقاربها بعد أن هجرتها، بحثت عن هاتفي وجدته يتوارى في أحد الشقوق بين الوسائد. نظرت إلى الشاشة واجهتني رسالة تحذير بانخفاض طاقة البطارية. لست وحدك الجائع يا صديقي. كانت محصلة النظر إلى الشاشة الساعة تشير إلى السادسة والثلث صباحًا. مائة وثمانية وتسعون مكالمة لم يرد عليها تقاسماها رقمي محمد فتحي وحسام بالإضافة إلى رقم آخر لم يكن مسجل لدي، بالإضافة إلى ستة وخمسون رسالة نصية لم أتصفحها. لا أملك ذلك الفراغ الذي يمتلكونه. كانت آخرها من حسام تحمل تاريخ اليوم منذ ثلاثة ساعات:

ـ خليك مكانك أوعى تروح في حتة، أنا جايلك.

دسيت الشاحن في مستقرة؛ لتسطع الشاشة بضوءٍ إضافي سعيدة بوجبة فطورها. تركت الهاتف خرجت إلى الصالة بخطوات أسد عجوز تكالبت عليه الذئاب.

من الأعلى تختلف رؤية المشهد كليًا عن رؤيته من الأسفل. غرقت الصالة في الفوضى. سلِمت فقط قطع الأثاث كبيرة الحجم. فكرت بأن أعطيها فأسًا وأدعي بكونها هي من سحقت صغراها. طاوعني الباب في وهن عندما جذبته. كنت في حالة يرثى لها، هكذا شعرت وأنا أتخذ الدرج إلى الأسفل بمجهود تحميل سيارة بضائع كبيرة الحجم يدويًا.

أرسلت شريحتين من البسكويت إلى معدتي التي بدأت تزمجر غضبًا

بالأسفل، قبل أن أشير إلى تاكسي. تفحص السائق مظهري في اشمئزاز قبل أن يضغط المكابح، زبون معتوه أفضل من لا شيء في ذلك التوقيت من النهار. جلست في المقعد الأمامي. أمرته أن يتجه بي إلى محطة السكك الحديدية «محطة مصر» الاسم الذي تعرف به في الإسكندرية. خلع نظارته الشمسية، وضعها على التابلوه. داعب الكاسيت بأنامله ليصدح الصوت من السماعات.

«تسلم الأيادي.. تسلم يا جيش بلادي، يا اللي رفعت رايتها وهشكتها هي وصاحبتها»

تقريبًا أشياء من هذا القبيل، لم أكن في حالة جيدة كي أدون الكلمات في عقلي يكفي ما به، اصطدمت نظراتي بنظراته المنعكسة في المرآة المثبتة على جانب الزجاج من الداخل؛ ليرى فيها وجه الجالس. كان يعمل على استثارة غضبي. كانت ضحكته صفراء تظهر أسنانًا ترك عليها التبغ عفن قد تفشل ماء النار في إزالته. ركز نظراته إلى لحيتي عرفت الآن لِمَ الاشمئزاز.

- قولي يا...

- أحمد.

قالها بتفاخر كان ينتظر حديثي، يأمل في فرصةٍ للفتك بي ومن ثم التحاكي عن ذلك الراكب الإخواني الذي أفحمه في الحديث قبل أن يصل به إلى وجهته، وهي القصة التي سيظل يرددها بفخر على مسمع جميع الركاب اليوم، كي يكسر ملل الانتظار في الإشارات.

- أنت تعرفني؟!

ـ محصليش الشرف يا باشا. قالها في نبرة سخرية.

مددت يدي إلى الكاسيت أغلقته، ضحك وهو يقول:

ـ الأغنية وحشة، صح؟

ـ أنت مسلم، صح؟!

ـ أحمد يا بيه وموحد بالله، وبصلي وبصوم من غير دقن. قالها متحازقًا.

ـ والدقن دي سياسة ولا دين؟ اختبرته.

ضحك:

ـ دقن سيدنا محمد، ولا سيدنا المرشد.

تمتمت بصوت منخفض:

ـ عليه الصلاة والسلام.

ـ وازاي حكمت عليا؟ أردفت.

ـ ماهو أنت يا بيه مش لابس جلابية.. عشان تبقى دي اللي فضلالك.

ـ ولو قولتلك إني مبصليش.

دخل في نوبة ضحك ترك معها عجلة القيادة؛ ليضرب كفًا على كف وهو يقول متفاخرًا:

ـ عيب، أنا عمر نظرتي ما بتخيب، ده أنا كل يوم بيركب معايا....

قاطعته:

ـ مش مجبر إني أعلق يافطة على صدري أقولك إن حالتي النفسية

مش كويسة والدقن دي حزن، بس مجبر إني أقولك الدقن دي كوم واللي أنتم أو هما بينيلوه في البلد ده كوم تاني، ركز في الطريق عشان أنا أتأخرت.

تورد وجهه ولم تتلاقى أعيننا مجددًا إلى أن وصلنا إلى محطة مصر، حاول الاعتذار. تقبلت اعتذاره ، اكتفيت بالدرس الذي ناله مني. دفعت له ونزلت متجهًا إلى داخل محطة القطارات.

تزاحمت في طابورٍ تتصارع فيه الأقدام قبل الأيدي من أجل الظفر بتذكرة للسفر، خلف شباك الحجز يجلس أمام شاشة الكمبيوتر موظف لا يبالي بالتكدس في الخارج يعمل بوتيرة مملة، فقط يكترث بسندويتش الفول في يده، تمكنت أخيرًا من الوصول إليه أخبرته وجهتي وأنا ألهث:

ـ إسماعيلية.. إسماعيلية.

كررها وهو يضغط المفاتيح أمامه بيد واحدة بينما انشغلت الأخرى بالانقضاض على السندوتش الذي يعاني بين أصابعه:

ـ مفيش إسماعيلية.. في بورسعيد.

ـ مش فاهم، مش هو هو نفس القطر، وهيعدي على الإسماعيلية الأول؟!

ـ أيوه يا محترم، بس أنت جاي في نفس اليوم يبقى تقطع التذكرة للآخر وانزل إن شاء الله تنزل في سيدي جابر.. المهم فلوسنا تبقى كاملة.

صريح لدرجة الوقاحة.

ـ بورسعيد بورسعيد.. تذكرة بورسعيد لو سمحت. تذمرت.

ـ بورسعيد.. بورسعيد.

كررها أيضًا، فكرت في كونه يستدعيها من خلال النداء لا بكتابة اسمها. قابلني بابتسامة سمجة:

ـ مفيش برضه للأسف.

تشارك المسافرون من حولي معي في توجيه اللعنات؛ لتعطيل الوقت دون فائدة تُذكر، يتحلى تسعون بالمائة من موظفي الحكومة بتلك الدرجة المميزة من البرود الانفعالي بينما العشرة بالمائة الباقية توفر على نفسها عناء التحلي بالبرود فتفضل المكوث في المنزل والانقطاع عن العمل، بينما يناوب عنهم هؤلاء متبلدي المشاعر كتابة أسمائهم في الكشوف عوضًا عنهم.

اضطررت أن أحجز مقعدًا على متن الرحلة الأخرى التي تقوم في الرابعة والنصف فجرًا. خرجت من الطابور بعد أن سحقت عظامي بين مكبسين بشريين. حصلت على التذكرة بالإضافة إلى طلاء رمادي اللون لحذائي بالأسفل. حمدت الله على كوني استطعت الخروج به أيا كان اللون.

تسارعت وتيرة فقداني للنقود، نظرت في محفظتي يتبقى القليل، الجيد في الموضوع أنني سأتجنب تطفل سائقي التاكسيات، حشرت نفسي في «مشروع» أو ميكروباص بالمسمى السكندري، بالكاد وجدت لي مساحة للجلوس دائمًا ما يظلم فاقدي الجرامات أمثالي في المعترك التنافسي. انشغل الركاب في الحديث عن ما يُسمى بدعوة خلع

الحجاب، كان تخيل الأمر واحدة من الأشياء السخيفة التي تحدث هذه الأيام. لم أكن بحاجة للمزيد من الأشياء التي تشغل تفكيري تجنبتهم وركزت في الطريق، أو هكذا ظهر مني. حرفيًا كنت عالقًا في ليلة الأمس. آخر ما كنتُ أتوقع عودته مجددًا

لن أُحرم من ابنتي.

سيُحرم هو منها..

***

حين عدت إلى الشقة مجددًا كانت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشر صباحًا. رميت المفاتيح على الطاولة. ولجت إلى المطبخ باحثًا عن كسرات من الخبز تملئ ذلك الفراغ داخل معدتي التي بدأت بالتقلص وافتعال الأصوات، وجدت بعض منها أصابها الخضار جراء الفطريات التي زحفت عليها، لم أكن أحبذ الفطريات، وضعت عدة ملاعق من السكر في كوب به ماء ومزجته جيدًا قبل أن أرسل إلى أوردتي جرعة من الجلوكوز منزلي الصنع.

اتجهت إلى الحمام على صوت المياه التي عادت، صباحًا نسيت أن أغلق الصنبور، أغلقته قبل أن أتجه إلى الصالة مجددًا. شعرت بالتحسن بعدما شرع المحلول السكري في الامتزاج بدمائي. فتحت أزرار قميصي كاشفًا عن عظام يومًا ما كانت تكسوها لحم، ألقيت جسدي على كنبة الصالون دون أن أخلع حذائي، شعرت بالامتنان لكونها بقيت على قيد الحياة. لا ملك دون عرش.

كان الغروب. تثاءبت محاولًا استعادة نشاطي. أغلقت أزرار القميص

التي فتحتها قبل أن أغرق في سباتي. ربما برودة الجو التي جلبها المساء هي من أيقظتني. أو ربما عقلي الباطن فضّل أن يقوم باستدعائي قبل أن يحل الظلام؛ لنفر من المكان قبل أن يدركنا الفتى. هندمت من مظهر ثيابي. كانت أصابع قدمي تصرخ في طلب النجدة، أخطأت حين تركتها حبيسة عندما غفوت، ولن أصلح خطيئتي بالمشي حافيًا. ربما سأطلق سراحها في القطار. حاولت تهذيب شعري قدر ما استطعت، حملت هاتفي الذي لم يتوقف عن الرنين منذ الصباح لكنه نجح في الظفر بكامل شحنته رغم ذلك.

في طريقي للخارج التقطت صورتنا الجماعية تاركًا إطارها فارغًا على رف المكتبة في موضعه. لم أحدد وجهتي، أردت فقط الفرار من المنزل قبل حلول الظلام، نظرت إلى هاتفي كان يتبقى قرابة العشرة ساعاتٍ على موعد القطار. تمشيت بغرض إضاعة الوقت إلى أن وجدت نفسي أواجه لافتة تخبرني بأنني أصبحت في محطة قطار «الضاهرية»، كانت تبعد عن منزلي قرابة نصف الساعة سيرًا على الأقدام، انتظرت حتى أتى قطار أبي قير المميز بلونيه الأصفر والأزرق الذي يربط بين ضواحي محافظة الإسكندرية، كان متكدسًا عن بكرة أبيه لا موطئ لقدم يبرز، من الأبواب أجساد العشرات، جرار القطار نفسه كان يعج بمئات الراغبين في قضاء أشغالهم مهما كلف الأمر. تخيلت لو أن للقطار لسانًا، شكرت الله على أنه مجرد تخيل. تصارعت من أجل البقاء بالداخل غارقًا في أبحر من روائح العرق الغنية. لم أجد لها مثيل حتى في المباول العمومية عندما تختلط رائحة البول بالنيكوتين بالعرق كي تصبح المحصلة النهائية واحدة

من أقوى عقاقير البنج على المستويين الإنساني والحيواني. تضاهيها فقط رائحة امرأة في الأربعين من العمر أطلقت ريحًا للتو خرجت بسرعة مائة وخمسون عقدة في الثانية بعد أن تزاحمت في أحشائها بقايا وجبة كرنب مسلوق لم تهضم بعد.

بعد أن وصلت إلى محطة قطار المنتزه قطعت باقي الطريق سيرًا إلى المعمورة على أنغام صوت طائري المفضل الغراب؛ لا أعلم لِمَ هو المفضل لدي؟

ربطت بينها وبين حسن الحظ الذي يلازمني. وجدت أني أشبهه تمامًا.

«أسودي أسود وأبيضي رمادي.. وأجلب الفقر جليًا قصادي»

مصمصتُ شفتاي تمزجًا من بيت الشعر الذي ارتجلته للتو، ولجت من البوابة واتجهت إلى المكان الذي تنفس عبقنا منذ أشهر معدودة. جلست على ذلك الكرسي الخشبي مجددًا هذه المرة كنت وحيدًا. توجهت إلى مدينة الملاهي أخرجت الصورة من جيب سروالي الخلفي، وقفت أتذكر في الموضع الذي لُقطت فيه منذ أشهر. تمنيت ولو أن ما يحدث كابوسًا أستيقظ منه لأجد كل شيء عاد إلى سابق عهده. يأت الندم عادة في اللحظات التي لا يفلح فيها الندم.

عاود هاتفي الصياح مجددًا. حسام يتصل. لم أجيب. الساعة كانت تشير إلى الثانية مساء الوقت المتبقي كاف للعودة.

كنت على أمل أن الأمور ستصبح على ما يرام. انقباض قلبي أخبرني بأنني على خطأ.

***

«يصلنا حالًا بمشيئة الله على رصيف سكة رقم ٣ قطار رقم ٥٨٨ المتجه إلى بورسعيد المقرر قيامه في الخامسة إلا الثلث، عربتان مكيفتان من الخلف وعربات مميزة من الأمام، يقف في المحطات. كفر الدوار. دمنهور. طنطا. الزقازيق. التل الكبير. الإسماعيلية. ثم يكمل رحلته إلى بورسعيد»

كانت محطة سيدي جابر. تمتلك أربعة خطوط حديدية؛ اثنتان للضواحي ذهابًا وإيابًا وأخيرتين للسفر لا تتوقف عن استقبال القطارات خلال الأربعة والعشرين ساعة يوميًا. صدمني مظهرها بعد التجديد. غطيت المحطة بالكامل أسفل مجمع تجاري مكيف الهواء به أماكن للحجز والانتظار، مكتبات، مطاعم، إلى آخره. استغلال جيد للمكان، لكن عندما لا يصل إلى ذلك الحد من التشويه. استحضرن مشهد من أحد الأفلام القديمة للمحطة مع صوت نداء في الخلفية:

ـ لوكاندة المندرة.

لعنت التطور الذي جعلني أصعد إلى قطاري من القبر.

بدأت الرحلة وأنا أبحث في العربة قبل الأخيرة عن مقعدي، تسللت إلى أنفي رائحة نتنة قادمة من دورات المياه بين العربات استطعت التسلل خلسة إلى العربات ذات التكييف الاسمي فقط؛ لتطور من قاعدة عملائها من الشمامين، وجدت مقعدي في المقاعد الأقرب إلى الممر يمين القطار. أخرجت تذكرتي. تأكدت من الرقم قبل أن أجلس.

لم أشأ التفكير. مما لا شك فيه أن الأمر على قدر كبير من السوء الآن. حاولت عدم التفكير طول اليوم وعليّ مواصلة ذلك خلال الساعات القليلة القادمة. أشعر وأنه يستحوذ عليّ. يقبع بداخل أفكاري ويحركني كدمية. أنساق رعبًا منه. أنفذ مخططه دون أن أدرك. قبل أن أكتشف تلك الخيوط من النايلون التي تتصل بأطرافي وعنقي تتدلى من قطعة خشب تشبه إشارة الزائد تمسكها يد شخص من الأعلى؛ ليتحكم في تحركاتي. عليّ الإقدام على أمر غير متوقع. آخر ما قد يأتي في مخيلته ما هو أنا مقدم عليه. وهنا تكمن المفاجأة. تغيير في الخطط. وأنتصر.

فجعت عندما لكزتني تلك اليد؛ لأنتفض قبل أن أجد نفسي مازلت في القطار، في الخارج غمر ضوء الفجر من بعيد الطرقات لكنه لم يكن كافي للرؤية في تلك الشبورة بعد. رفعت رأسي ببطء للأعلى. وقف أمامي شخص رياضي الجسد يرتدي بزة رسمية ويحمل في يده حقيبة تشبه التي يحملها المحامون، تخيلت بأنه فاسد آخر أصغر عمرًا. أشار نحوي بالتذكرة في يده:

ـ مكاني يا أستاذ.

ـ كرسي كام أنت؟!

قلتها وأنا أتثاءب، أيقظني من غفوتي اللعين.

ـ ٢٥.

لعنت الموظف خلف شباك الحجز، وتساءلت حجز ذلك المقعد لكم من الأشخاص غيرنا؟ كانت السيدة إلى جواري قد بدأت في متابعة

ما يحدث. تعجبت لم ألاحظها عندما جلست. سحبت تذكرته من يده واستعرت القلم من جيب سترته دون أن يأذن لي ودونت بجوار رقم المقعد كلمة «جنب»؛ لتصبح «جنب المقعد رقم ٢٥»

صاح في غضبٍ وهو يجذب تذكرته في عنف:

ـ يا أستاذ أنت بتعمل أيه؟!

ناولته تذكرتي:

ـ وأنا كمان ٢٥.. يعني أنا اللي سبقت، أنت بقا تقضي طول الرحلة كده وأقف جنب كرسي ٢٥، خد شوف.

قابلني بابتسامة مرحة:

ـ عربية اتنين اللي ورا.. هنا عربية واحد.

استعدت التذكرة حدقت إليها مجددًا في بلاهة. كنت أشعر بالغباء.

قمت في ابتسامة حاولت بها الحد من كمية الاحمرار التي ضربت وجهي وأنا أعيد القلم بنفسي إلى سابق موضعه. كنت أمشي في الردهة إلى العربة الأخرى. كلباسٍ أبيض نشر على الحبل الأمامي وحده في عز الظهيرة.

كان رفيق المقعد الآخر لطيفًا نوعًا ما، أكبر سنًا لكن مظهره أكثر شبابًا، لديه جو رائع من المرح. أصر على أن نتقاسم بعض الشطائر كانت بحوزته. كنت بحاجة إلى ذلك، إذا رفضت متمنعًا ستوشي معدتي بي تأكيدًا. بعد أن تناولنا الشطائر. طلبت لنا شايًا من البائع المتجول أتى في أكواب بلاستيكية. كانت نشارة خشب تسبح في

الماء الدافئ. حاولنا الاستمتاع، قُضي الأمر.

تجاذبنا أطراف الحديث وأنا أتجاهل الهاتف الذي بدأ في الرنين مجددًا. كان دكتورًا في جامعة قناة السويس كلية الحاسبات والمعلومات يُدرس لغات البرمجة. كان المصطلح جديدًا عليّ أخبرته ذلك ولم يمل عندما بدأ في الشرح بإيجاز لي ما يعني بكلمة برمجة. سُرّ عندما عَلم بأنني طبيب للأمراض النفسية. تبادلنا أرقام الهواتف. طلب عنوان العيادة الخاص بي، أخبرته عن كوني أتبع مستشفي العباسية ولا أمتلك عيادة خاصة. لكنني كتبت له عنوان شقتنا في منزل أهل سمر عوضًا عن ذلك، تكونت بيننا شبه صداقة. قد تفلح في إثنائي عن التفكير، وعلى الجانب الآخر تهون عليه ملل سبع ساعات من المكوث حبيسًا للمقعد.

سقط هاتفي أرضًا، بعد أن اصطدم بي وأنا جالس ذلك الثور الهائم، لم يكترث بالاعتذار إليّ، أكمل طريقه كأن شيئًا لم يكن. أخرجته من رأسي كمن يخرج الذباب من فتحة النافذة بالمنشفة. دنوت أرضًا أحضر الهاتف.

رأيته يقف على الباب الفاصل بين دورات المياه والعربات المكيفة كاشفًا عن ابتسامة ميتة. إنه يتجول. لم يعد حبيس الحمام فقط. هل بطريقة ما تسلل إلى داخلي وعلم بمخططي. يجب إثناؤه عن الوصول إليها بكل الطرق والوسائل. كان ما يزال واقفًا يحدق إليّ بنظرة خاوية ونفس الابتسامة الغبية. حاولت طرد الخوف.

إما أن أخسر جميع الأشياء، في سبيل ذاتي أو أن أربح ذاتي؛ لأخسر

جميع الأشياء.

لا مجال للتناقض الآن. الفكرتان يحملان نفس المغزى، لكن نتائجهم تختلف. خسارتي في الحالة الأولى حالة المواجهة. ستكون أنا وذاتي المكتسبة ستكون يارا، في الحالة الثانية ستُعكس الآية إذا ما قررت كسب نفسي مقدمًا واجتناب المواجهة. حزمت أمري. تركت هاتفي أرضًا. وعدوت صوبه.

ـ دكتور يوسف.

أتاني نداء رفيقي في المقعد في فزع، بدأت جميع الرؤوس تتجه إليّ مندهشة وأنا أعدو في الردهة، رأيتهم مجرد ظلال تتراجع للخلف مسرعة بينما تتزايد سرعتي. ومعها يتزايد مقدار رعبي. قلبي يخفق يفضل الفرار. لكنني كنت مندفعًا عاقد العزم على الخلاص منه الآن قبل أن يحصل عليها هو. إنه يعلم الطريق.

مرت المسافة من مقعدي إلى الباب كالدهر. مرت أمامي أفكار وأناس ومشاهد. قبل أن أصل إليه قرر العدو للخلف وهو يضحك. عبر الباب لم أقلل من سرعة اندفاعي حتى بعد أن صدمني الباب وهو عائد في وجهي. وقفت في المسافة الفاصلة بين دورات المياه والعربة حائرًا أين ذهب اللعين؟!

خارج القطار في الأسفل رأيته يعدو وهو ينظر إليّ متحديًا..

هل جُنَّ؟! يقفز من القطار مع تلك السرعة الجنونية، ماذا و إن لقي حتفه؟!

تذكرتُ بأنه قد لاقاه من قبل. لن يغير الأمر شيئًا.

داخل العربة رأيت من الزجاج بعض الأشخاص يقفون في أماكنهم يتابعون ذلك المخبول، من خلفهم كان دكتور «أحمد» يصطدم بالمراقبين وهو يعدو إليّ ممسكًا بهاتفي وفي وجهه نظرات الهلع.

في الأسفل كان ما زال الوغد. يعدو دون أن ينظر أمامه، التقت أعيننا رفع يديه محييًا. أنه يجبرني على دخول المعركة. يعلم جيدًا. بأنني لن أتراجع. ركزت في تفاصيل المكان جيدًا. كان يعدو في تلك المنطقة من الأرض الزراعية الفاصلة بين سكة القطار والمجرى المائي.

تمنيت أن يخفض سائق القطار من سرعته قليلًا. الفتى سرعته بدأت في التراجع. سائق القطار تلقى أمنيتي عكس ما تمنيتها زادت السرعة.

في اللحظة التي فُتح فيها الباب. كنت أتراجع خطوة للخلف. عقدت العزم. عدوت للأمام. سمعت صوت دكتور أحمد ينادي باسمي من الخلف مجددًا مجردًا من الألقاب هذه المرة.

امتدت يداه في محاولة يائسة منه للحاق بي. كان آخر شيء وقعت عليه عيني قبل أن أقفز، وبعدها أيضًا.

عصفت بي موجة قوية من الهواء عكس اتجاه سير القطار، لم أشعر بالألم..

الألم شعور رحيم إذا ما قورن بالذي حدث ليّ..

***

الميت الذي عاد

لن تحصد يداك إلا ما زرعته أفعالك.

١

المصابيح تدور في الأعلى أمامي بشكل رأسي تبدأ من الأعلى تصل إلى الأسفل عند قدمي؛ لتترك مساحة بيضاء فارغة قبل أن تعود مجددًا من الأعلى. الألم منعني من تحريك رقبتي يمينًا أو يسارًا.

سمعت أصوات هرولة أقدام لم أستطع تحديد إذا كانت تقترب أم تبتعد؟ فقد ظلت الأصوات تأتي بنفس القوة والوتيرة. كانت الجدران من حولي تتحرك بدورها إلى الأسفل مع المصابيح مبتعدة. صوت باب يفتح ومن ثم انسحب السقف وحل محله حلق معدني يخص الباب الذي سمعته يفتح منذ قليل قبل أن يعود السقف مجددًا، شعرت أنه من الغباء أن أستغرق كل ذلك الوقت كي أفهم ما يحدث حولي، أنا من أتحرك مستلق على ظهري.

المصابيح ثابتة في الأعلى..

أظلمت مجددًا..

***

- هو لسه نايم؟

سمعت الصوت وأنا مغمض العينين، بدا مألوف إلى حد ما:

- طول الليل يفوق يمسح الأوضة بعينه وينام تاني.

كان الصوت الأخير مألوف جدًا لدي، حتى وإن كنت في أسوأ حالاتي لن أخطئه ما حييت.

ـ طب ها اضطر أستأذن أنا.. وإن شاء الله لما يوصل الإسماعيلية هاجي أزوره.

ـ أنا متشكره جدًا.. بجد مش عارفة أقولك أيه.

ـ مفيش شكر، إن شاء الله يقوم بالسلامة.. أستأذنك يا مدام.

ـ لحظة يا دكتور أحمد، خدني في سكتك.

كان صوت شخص آخر.

حاولت أن أفتح عيناي لم أقوى، الألم بلغ ذروته حين بدأت أن أستفيق كما لو أنه كان يحترم غفوتي. حواسي في حالة يقظة تامة، عيناي تأبى ذلك. سمعت صوت الباب يغلق، البكاء يتزايد مع وقع أقدام تقترب مني. شعرت بأنامل تتحسس يدي. أعلم جيدًا لمن تعود تلك اللمسات. فترة الفراق لم تدم إلى ذلك القدر الذي قد ينسيني ملمس الجنة، وإن قد طالت فأنا لم أعهد ملاكًا مسبقًا كي يخيل عليَّ تعدد الملامس.

تتزين النزوات أحيانًا. بذلك البريق الزائف، تصطنع العاهرات الشرف. ويرتدي الفاسدون الفضيلة. يدعي من يدعي. ويرتدي من يرتدي. دائمًا للعطر عبق نفاذ. يلفت أنظار الأعمى إليه قبل البصير. ويبقى في الأخر كحولًا. يُرش ثم يُغسل.

الشهد بلا أريج يُذكر..

سأقبل قدميها يومًا؛ كي تغفر لي وزرًا. اعتقدت بأنها لم تعد تتذكره. قلة هم أولئك المخلصين.

حاولت تحريك أصابعي كي أتحسس أناملها. عجزت، لكنها شعرت بتلك الرعشة التي انتابت يدي من أثر المحاولة. سحبت يدها على الفور، أبعدتها خشية أن أشعر بلمساتها. فنحن الآن لا نحل لبعض.

ـ يوسف.

طاوعتني عيناي هذه المرة، فتحتها ببطء. رأيت ظلها بداء يتضح تدريجيًا حتى تكونت لأمامي. عيناها تغدق ملابسها بدموع لا توقف لها. وهي تضع يديها على فمها. كانت في حاله ذعر شديدة ووهن أشد فقدت الكثير من وزنها حتى شارفت معالم جسدها على التواري. حاولت أن أبتسم لها مطمئنًا لم أقوى. تحشرج صوتي وأنا أحاول النطق.

ـ يارا.. يارا.

كررتها كان صوتي يأبى أن يخرج، كان هناك شيء جاثم على فمي..

بعدها أظلمت الغرفة.

***

بعدما ذهب تأثير المخدر كان باستطاعتي إمعان النظر فيما حولي. كنت في غرفة مستشفى حكومية على ما أعتقد، حالة الفراش تدل على ذلك، تساءلت كم من شخص لقي حتفه على ذلك السرير الذي أفترشه الآن؟ أصوات هواء يتدفق مصدره أسطوانة الأكسجين التي تغذي رئتاي. تتصل بجسدي أنابيب وأسلاك، بجوار السرير كانت

هناك شاشة لرصد نبض القلب تصدر صوت تكاتٍ رتيبةٍ تكاد تكون غير ملحوظة. وعلى فمي تتواجد قطعة من البلاستيك تخص أسطوانة الأكسجين. خمنت أنني في العناية المركزة. ذارعي الأيسر جُبس بالكامل. قدماي تعتليها الضمادات. بطني أيضًا، وذراعي الأيمن كان مُغطى بالشاش من عظمة المرفق إلى الساعد. فكرت في كم لبثت وأنا على ذلك الوضع؟ و إلى أي مدى وصل الفتى؟ وما هي خطوته القادمة؟ كيف لي مواجهته وأنا في مثل هذه الحالة؟!

فكرت في يارا. أخشى أن أفقدها. حاولت النهوض شعرت بألم ملامسة الكحول لجرح مفتوح. شعرت بي سمر. نهضت من مقعدها. لم تتحدث. فقط نظرت وبكت. كانت في تلك المرحلة الفاصلة بين كرامتها وأنا.

ـ يوسف، أنت كويس؟ سألت وهي تبكي.

أومأت برأسي، حاولت أن أسال عن يارا ، قرأت حركة شفاهي:

ـ يارا كويسة.. وأنا كويسة.. كلنا يا يوسف.. أنت اللي مش كويس.

كانت تقترب من الانهيار، يبدو أن صوتها استدعى الممرضة من الخارج، حاولت إخراجها من الغرفة:

ـ مش هطلع من هنا سبيني.

أصبح بكاءها أشد. بعد عدة محاولات من الممرضة لإخراجها، خرجت بأمر من الطبيب الذي دلف من الخارج:

ـ لو سمحتي يا مدام، أنا مقدر قلقك وشعورك دلوقت، بس أنا

محتاجك بره خمس دقايق عشان أقدر أشوف شغلي.. يا ريت تمسكي أعصابك كده.. الموضوع بسيط.. أديها مهدئ يا ميار.

وجه كلمته الأخيرة إلى الممرضة، قبل أن يتقدم مني:

ـ أيه يا بطل عامل أيه؟ كانت نبرته لطيفة.

أومأت برأسي، ليقابلني بسؤال آخر:

ـ فاكر اسمك أيه؟

ـ يوسف. أجبت بوهن شديد.

ـ يوسف محمد. كررت.

ـ عال.. عال يا أستاذ يوسف إحنا بقينا زي الفل أهو.. هي شوية كدمات بسيطة.. قولي بتحس بصعوبة في التنفس.

قالها وهو يتفحص أوردة ذراعي الأيمن:

ـ لا.

نزع عن فمي جهاز التنفس الصناعي:

ـ خد شهيق. أمرني.

وجدت صعوبة في الشهيق، كانت أضلاعي المسحوقة تسد القصبة الهوائية التي يحاول الهواء الآن الدخول إليها عنوة، بعد محاولات شهقت:

ـ تمام.. زفير بقى.

كان الزفير أيسر. انساب ثاني أكسيد الكربون للخارج في نعومة شديدة:

ـ لا لا ده إحنا بقينا زي الفل أهو.. أنا ها أديك منوم دلوقتي والصبح هتطلع من العناية.. ويمكن تروح بكرة.. دراعك الحلو يا وحش.

قالها وهو يخرج حقنة بها مادة صفراء من جيب البالطو، فردت ذراعي. أعاد النفس الصناعي إلى فمي مجددًا. بعدما غرس النصل انطلقت المادة المخدرة تعبث بأوردتي.

وشعرت بالنعاس..

***

في اليوم التالي كان الصباح مشمسًا، رفضت أن تقوم الممرضة بمساعدتي في تبديل ثياب المستشفى، وجدت صعوبة في ارتداء ملابسي دون مساعدة، إلا أني حبذت ذلك عن إحساسي بالعجز مع تلك اليد المسحوقة، في الخارج كانوا الجميع نساء، حماتي وفاتن ينتظرونني بينما سمر تتعمد البقاء بعيدًا كما لو أنها قد أتت لتقود فقط، تساءلت عن عدم تواجد حماي أخبرتني فاتن أنه فضل البقاء مع يارا. لم أكن أعلم كيف سأقوى على مواجهته، بينما حسام كان متواجدًا حتى الأمس قبل أن يستدعى إلى مأمورية.

***

خيم الصمت منذ أن غادرنا مستشفى الزقازيق العام إلى أن وصلنا إلى الإسماعيلية، طول الطريق حاولت تجنب النظرات التي تراقبني في المرايا من الجميع. كنت أشعر بندم قاتل يرتدي بزته الحمراء الأخيرة بينما هو يتجه إلى المنصة ليُجز عنقه.

***

الاستقبال..

كان استقبال فاترًا من جانب حماي اكتفى بالربت على كتفي قبل أن يخبرني أن لا وقت للحديث اليوم. لا أخفي سرًا لم أكن أعلم بما سأبرر فعلتي. أو بما كنت سأجيب إذًا و إن كان قد اختلف لقاؤه. سارت رجفة في جسدي حين علمت إن تاريخ اليوم هو التاسع والعشرين من أبريل. يتبقى القليل جدًا. ذهبت بشرودي إلى شقة الإسكندرية مجددًا.

وجه يارا كان يميل إلى اللون الأزرق وهي تضع كميات من مستحضرات التجميل على وجهها. ترتدي فستانًا أسود اللون يصل إلى ركبتيها يظهر كتفيها وأسفل قدميها، كان جلدها بأكمله أحمر اللون. نظرت إلى شعرها خلسة. بالأعلى وكما هو المعتاد حدوثه في أفلام الرعب.

نبتت لها قرني جدي..

تبًا..

***

وجدتهم قد جهزوا الشقة الأخرى من أجلي، تناوبتا حماتي وفاتن على رعايتي. على مدار الأربعة أيام الأولى لي هنا. كنت أتناول الطعام وأنا مستلقٍ في السرير، بعدها تحسنت صرت قادرًا على التوجه إلى الحمام دون مساعدة. كانت الكدمات تؤلمني، لكن الأمر لم يكن بذلك السوء الذي كنت عليه منذ أيام مضت. بكت يارا عندما رأتني هكذا، وأخبرتني بأنها كانت غاضبة مني إلا أن «ماما قالتلي

بابي بيحبك مش تزعلي منه.. فبقى أنا مش زعلانة خلاص» قبلتني بعدها.

على الغداء الأول معهم كان لقائي الأول بحسام منذ أن عدت، أُجبرت على تناول الحساء بالإضافة إلى الدجاج المسلوق، كان من الرائع السيئ أن أجد الجميع حولي مجددًا لكنه بعد أن عدت منبوذًا، جلست سمر في نفس الصف الذي أجلس به يفصلنا حماتي، شعرت أنها رتبت للأمر كي لا تتقابل نظراتنا. أشعر بالامتنان لها الآن. لم أكن سأقوى على مواجهتها. في الجانب الآخر جلس حسام مواجهًا لي إلى جواره جلست فاتن ويارا في المقاعد على التوالي. بينما أمتنع حماي عن تناول الطعام. اختلست فاتن بعض النظرات نحوي من آن إلى آخر، بينما تجاهلني حسام تمامًا.

ساعدتني حماتي في صب كمية إضافية من الحساء في الطبق أمامي. كان تذمر يارا بعدما أجبرتها سمر على أكل محتويات طبقها بأكمله. الشيء الوحيد الذي خرق الصمت. بعدها غرقنا فيه مجددًا.

عبثت بطعامي وراقبت سمر وهي تقوم بالأمر نفسه، كان يراقبنا حماي الذي جلس في مقعد الأنتريه الذي يسمح له باختلاس النظر دون أن يقطع مدى نظره سوانا:

ـ أنتم الاتنين يظهر خلصتم أكلكم حصلوني على الأوضة جوه.

كان يقولها في ضيقٍ وهو يقف في مكانه، كانت لغته آمرة. بعدها ألقى المجلة التي كان يتصفحها من يده إلى المنضدة أمامه قبل أن يتجه إلى الداخل.

كنت قد سبقت سمر إلى الداخل بعد أن أخّرت قدميها خشية السير إلى جواري. كان المكان معدًا للحديث. حماي جالس على كرسي مواجه للسرير، أمرني بالجلوس وأمر سمر بغلق الباب والجلوس إلى جواري على السرير في مواجهته:

ـ اللي هيرد على الكلام اللي متوجه ليه الكلام وبس.

كان يضع قواعد اللعبة كي لا يفقد السيطرة، أجبنا بالصمت.

ـ دي الأمانة اللي أنا أديتها لك؟ كان حديثه موجهًا لي.

تلعثمت:

ـ عمي.. أنا.. أنا كنت في حالة شك، مش فاهم اللي بيحصل.

ـ وما طلبتش تفهم ليه؟

لم أجد ما أجيبه به سوى الصمت، تركني متعمدًا قبل أن أجيب، وجه نظراته إلى سمر:

ـ فهميه. أمرها.

ـ بابا. كانت مفزوعة.

ـ فهميه، مستينة أيه يجرى تاني؟! كان حازمًا وهو يكررها.

كان هناك لغز في الموضوع، نظرات حماي غاضبة. وسمر مفزوعة من الأمر هنالك ما يخفونه، هي تصر على الاستمرار في إخفائه بينما هو قد فاض به الكيل:

ـ في أيه؟! نطقتها مندهشًا.

ـ أنا يا يوسف؟؟ أنا يا يوسف تعمل معايا كده؟! كانت تدمع.

بينما حماي بدأ في التذمر، لم يكن الأمر على سجيته. قاطعتها:

ـ سمر.. في أيه الأول؟

ـ مفيش يا يوسف المكان ده وحش.. كنت بحاول أقنعك بكده بكل الطرق.. خالتي وجوزها وأخوك ماتوا فيه مقتولين يا يوسف.. مكنش ينفع مكنش ينفع أبدًا نكمل هناك.

ـ سمر. كان حماي غاضبًا.

ـ بابا عشان خاطري. نطقت في إصرارٍ.

ما زال الأمر غامضًا، أعلم جيدًا كونهم قُتلوا في الشقة ونجوت أنا. لم يكن لي أخ. لم يُقتل سواهم، نظرت إلى سمر كانت تراقبني وهي تبكي. بينما كان غضب حماي بدأ في الزوال، وكأنما رضخ للأمر الواقع.

ـ سمر قوليلي..

قاطعتني:

ـ يوسف أوعدني إن ما فيش إسكندرية تاني.

ـ سمر. صحت بغضب.

قامت وهي تصرخ من مكانها في يأس:

ـ أوعدني قولتلك.

قاطعها حماي:

ـ أول وأخر مرة تنطق الكلمة دي، أنا بعتبرك ابني وأمنتك على أغلى ما عندي.. هتفرط فيها تاني.. أنا اللي هاخدها منك.

كانت لهجته محذرةً، لم أنطق ولم تتحرك سمر ظلت واقفة تنتظر إجابتي. قالت وهي تبكي:

ـ أوعدني يا يوسف.

ـ أوعدك. كذبت.

ندمت على كذبتي بعدما عانقتني وهي تبكي، انسحب حماي للخارج وهو غير راضٍ، ألمني ذراعي الذي سُحق وأنا أحاول ضمها بذراعي الأبعد بدوري.

كان البكاء حارًا..

والألم كان راحة أبدية..

بينما كذبتي كانت وصمة العار على جبيني..

***

٢

منذ ذلك الصباح مضت الأمور إلى الأفضل، عدت إلى أحضان وطني الأول والأخير. في المساء بقيت إلى جواري تشاركنا سريرًا واحدًا، إلا إنها فضلت البقاء قرب الحافة كي لا تؤلمني إذا ما اصطدمتْ في جسدي أثناء تقلبها، سمر من تلك الكائنات التي تستيقظ صباحًا فتجد قدميها على الوسادة ورأسها في الأسفل، فكرت ذات مرةٍ في ربطها إلى السرير لكنني عدلت عن الفكرة حين وجدت أنه من الضروري في تلك الحالة وضع مشمع لها أسفل الفراش.

في صباح اليوم التالي حرصت سمر على إيقاظي باكرًا من أجل اصطحابها. كي ننتقي أثاثًا جديدًا من أجل إعادة تأهيل شقتنا. لم أراها سعيدة هكذا من قبل سوى في اليوم الذي وافق حماي به على زواجنا.

حين ولجنا إلى الحمام معًا أمرتني بأن لا أتحرك من موضعي. لم أكن أعلم بمخططها، امتثلت لأمرها. مرت دقائق بعدها عادت تحمل آلة كهربائية لحلاقة الشعر. تركتها تعاني في محاولة منها لإعادة تهذيب حشائش السفانا بالأعلى. شعرت بالشفقة تجاه آلة الجز، أدغالي في حاجة إلى محراث زراعي متوسط الحجم. بعد أن ذهب موسم الحصاد بالأعلى تفقدت تُربتي في المرآة. عندما تذكرت البحيرات التي كانت عادة ما تتركها في رأسي. لم يكن عسيرًا عليّ تقبل تلك البركة الصغيرة في المنتصف، بالتأكيد هناك حيوانات بحاجة إلى

الماء في الأعلى. انشغلت هي بتنظيف جسدها من الشعر العالق به، قبل أن تمهلني نصف ساعة من الزمن كي أكون جاهزًا أمامها.

عادت إلى طفولتها مجددًا..

أعشقها حين تتدلل..

***

حصلنا على أثاث جديد، كانت الشقة رائعةً مع لمسة سمر. كنا نعيش في عزلة. يارا تعيش معهم في الشقة الأخرى تقضي سمر بعض الوقت معه بينما معظم الوقت إلى جواري تجنبت الجميع فتجنبوني بدورهم.

- تيجي نخرج حبة النهاردة أنا وأنتي لوحدنا ، عايز أتكلم معاكي حبه؟

كنت قد أجلت الحديث كثيرًا، آن أوانه. أومأت برأسها وهي تنظف يديها من بقايا صلصة الطماطم العالقة عليها:

- طب ممكن يا بابا بعد العصر بس عشان الجو نار بره؟

- أيوه يا ماما على بالليل.. أنا بس بقولك دلوقتي عشان تعملي حسابك.

قلتها وأنا أغادر المطبخ؛ لأتركها تتصبب عرقًا وهي تعد وجبة الغداء. وأتصبب أنا عرقًا وأنا أعد وجبة الخلاص.

***

في كافيه ليالي الشام الذي شهد أولى لقاءاتنا خارج المنزل. كنا

نجلس، كانت سمر تراقبني دون حركة بينما جلست أنا أراقب الوجوه السعيدة من حولنا، عدت بالزمن للخلف عدة سنوات حين كنا نجلس سعداء مثلهم وتمنيت لو أن لبثنا في تلك المرحلة من حياتنا كثيرًا.

ـ أيه يا حبيبي أومال مين اللي ها يتكلم؟

عدت من شرودي. تلعثمت قليلًا:

ـ أها.. أنا روحت أزور دكتور خالد في العيادة قبل ما أجي.

قابلتني بنظرة مصعوقة بعد أن تركت كأس العصير من يدها دون أن ترتشف منه شيئًا، لم أعطها الفرصة للحديث:

ـ واحد نصاب قابلني.. وقال لي إنه ميت من تمنتاشر سنة.. بعدها رجعت الشقة، كنت غضبان مش شايف قدامي. كسرت كل حاجه قدامي كنت تعبان. بعديها نجيت من الموت بأعجوبة.

ـ موت؟!

كانت تجلس مذعورة أمامي. ضربت وجهها كميات إضافية من الشحوب:

ـ اللي في الحمام طلع لي، وكان ها يقتلني لولا.....

قاطعتني بنبرةٍ ترتجف:

ـ يوسف، أنت لازم تفهم أن دكتور خالد ميت، لازم تفهم ده يا يوسف متدورش عليه.. إحنا اللي هنتأذي كده.

شهقت وهي تستجمع أنفاسها التي حُبست أثناء الحديث بينما أنا

صعقت وأنا أنظر إليها، لم أستوعب فكرة كونها كانت تعلم وتخفي الأمر عني، وكيف لنا أن نُؤذى ببحثنا عنه؟! أضافت:

ـ إحنا اللي هنتأذي يا يوسف.. فكر فينا شوية.. دكتور خالد روحه هي اللي ساكنة شقة إسكندرية، عشان كده كنا بنحاول نمشيك من هناك ونخبي عليك موته.

ـ وده ليه؟ صحت. كنت غاضبًا.

عشان ماينفعش أقولك مات.. أنت عارف يعني أيه أقول لك على أملك الوحيد إنه مات، وأنا شيفاك متعلق بيه قد أيه؟! كانت مرتبكة.

ـ وليه يا سمر؟ ليه؟ ليه كل الوقت ده في القلق ده مش مطمن وأنتي عارفة الحقيقة ومخبية.

فكرت طويلًا وأجابت:

ـ أنت قدرت تسافر أربع سنين من غير ما تحتاجني.. قدرت تطلقني.. قدرت على كتير يا يوسف.. كان لازم تعيش خايف عشان تفضل طول عمرك محتاجني، كنت خايفة أخسرك.

هربت نظراتها في ارتباك من مواجهة نظراتي، استشعرت عدم صدقها إلا أنني لم أجادل كثيرًا:

ـ هنسافر إسكندرية بكرة. كنت حازمًا.

ـ يوسف أنت وعدتني.

كانت تنبض رعبًا، مدت يديها تحتوي يدي وهي تكمل:

ـ عشان خاطري بالله عليك.

ـ مش هنقعد هناك يا سمر، أنا محتاج أزور قبر دكتور خالد.

يوسف أنت ليه مُصر تأذينا بالحاجات دي، يوسف.. دكتور خالد عايز ينتقم والزيارة دي هتفتح علينا أبواب إحنا مش قدها. بكت.

ـ الأبواب دي أتفتحت فعلًا، ولازم ندور على القفل.

***

قادت على الطريق الزراعي باتجاه الإسكندرية، كانت قيادتها جنونية، راقبت عداد السرعة كان يقترب ببطء من المائة وأربعين كيلو متر في الساعة، تشبثت في مقعدي:

ـ روح روحي ممكن يا قلبي، تنزليني أركب أنا تاكسي وكملي أنتي إن شالله تمشي من غير أمبير خالص. كنت أتوسل.

ضحكت:

ـ قول أنا أسف يا سمره ومش هزعلك تاني.

ـ بت.

ـ قووووووول.

ضغطت مجددًا على دواسة البنزين. صرخت:

ـ أنا أسف يا سمره ومش ها ازعلك تاني.

كانت ضحكاتها طفولية تركت عجلة القيادة؛ لتصفق:

ـ هيييييييييييييييييه.

تشبثت بيديها معيدًا إياها إلى عجلة القيادة مجددًا:

ـ يا مجنونة.

ضحكت، انخفضت السرعة إلى المائة كيلو متر. هكذا أفضلها.

ـ سمر، متزعليش مني إني فرطت فيكي في يوم من الأيام.. كان غصب عني.. أنتي لو مش عارفة أنا بحبك قد أيه مش هتسامحيني.. سامحي وانسي.

ـ ششششش، بس مش تفكرني عشان مش أزعلك ماشي يا شاطر.

كانت مدهشة.

ـ بسيت.. ما تشغلي البتاع ده.

لم تُكذب خبر.

«أمنتك عليا عشان لقيتني مصدقاك.. وعدتك في وقت الجد جنبك هتلاقيني.. وبسهر على راحتك وراضية أتعب معاك.. وأن ماتشيلكش الأرض أنا أشيلك في عيني»

ـ لا ده أنتي مرتبة بقا. غمغمت.

تمتمت مع الأغنية:

«مع بعضنا هنعيش مع بعضينا.. وحبنا م الدنيا دي مكفينا.. ده أنت وأنا ولا عمرنا أتمنينا.. غير بيت صغير وبابا مقفول علينا».

***

توقفنا للتزود بالوقود. تركتها في السيارة وتوجهت إلى المتجر. بحثت

في الرفوف عن رف الشيكولاتة بعدما يئست. سألت أحد العمال عن مكانها أرشدني إلى المبرد في الجهة الأخرى من المتجر. أكاد أن أجزم بأن ذلك الكنز بداخل مغارة علي بابا أقل إغراء من ذلك الذي واجهني للتو، كان المبرد يعج بما خف وزنه وزاد سعره. أحتاج إلى ميزانية دولة متوسطة الحجم كي أحصل لها على جميع تلك الأصناف. اخترت لها واحدة متوسطة الحجم بالبندق كما تفضلها هي. أخفيتها قبل أتوجه إلى الخارج. كانت تجلس في السيارة تصطنع البراءة. حاولت فتح الباب وجدته موصدًا من الداخل أخرجت لسانها لي قبل أن تفتح الزجاج قليلًا:

ـ مخبي الشيكولاتة صح؟ اعترف أحسن لك.

ما زالت تتذكر بأنها ابنتي. اصطنعت البلاهة:

ـ شيكولاتة؟! أجيب لك يا حبيبتي.

ـ والله؟! أنت حر يا حدوتة.

قالتها وهي تغلق الزجاج مجددًا، تراجعت عن إتمام غلقه في اللحظة التي رأت فيها قالب الشيكولاتة بين يدي:

ـ هيييييييييييييييييييييه. نطقتها في فرح وهي تصفق.

فتحت الباب لي قبل أن أجلس في مقعدي إلى جوارها. انقضت على يدي مستحوذة عليها:

ـ لسه هبلة، زي ما أنتي. داعبتها.

ـ وأنت لسه حبيبي، زي ما أنت.

صوتها تبدل بفعل نصف قالب الشيكولاتة الذي أصبح بداخل فمها الآن.

***

كانت المقبرة تختلف عن الأخريات المحيطات بها. تكسوها ألواح من الرخام الأبيض وتتزين ببلاطات على شكل حزام ذهبي اللون، كتب بداخلها أسماء الله الحسنى وفي المنتصف تمامًا توجد قطعة رخام خضراء لونها، حُفر عليها بالخط الفارسي:

«هنا يرقد كُلًا من :

فقيد الشباب: أحمد خالد محمد منصور

وُلِد في: ٢٦ / ١١ / ١٩٨١

تُوفي في: ٢٢ / ٥ / ١٩٩٧

خالد محمد منصور

وُلِد في: ٢ / ٦ / ١٩٤٢

تُوفِي في: ٢٢ / ٥ / ١٩٩٧

فتحية إبراهيم عبد المولى

وُلدت في: ٢٣ / ٧ / ١٩٤٥

تُوفيت في: ٢٢ / ٥ / ١٩٩٧»

أصبح الآن الأمر منطقيًا.

«أنا ابن الدكتور اللي أنت بتدور عليه»

«فرحنا اتنين وعشرين خمسة، أنت معزوم»

وجهت نظرة أخيرة إلى تاريخ الوفاة على شاهد القبر أمامي، يقينًا اختار التاريخ المفضل له من أجل استقدام ابنتي إليهم، نظرت إلى سمر فاغرًا فمي. ملاءتها نظرتي رعبًا.

ـ لازم نحمي يارا يا سمر. كان صوتي قد أصابه الإعياء.

أصفر وجهها:

ـ يوسف، لا بلاش تاني كده.. لا. كانت غريبة.

قلت وأنا أجلس إلى الأرض بعد أن فشلت قدمي في المحافظة على اتزاني:

ـ ابن الدكتور، اللي طلع لي أنا عارفه.. وجاي ينتقم.. هيتجوز بنتنا في التاريخ اللي ماتوا فيه.

ـ تاني يا يوسف؟!

وقفت تتطلع إليّ في ذهول. وكأنها تراقب مخبولًا. كان وجهها يشعر بالخطر المحدق إلينا، أخبرت نفسي ذلك. يقينًا يجب عليّ التصرف قبل فوات الأوان.

يجب عليّ التحرك الآن..

يجب علينا الخلاص..

***

الفرح

لا تستنفذوا البدايات سريعًا، فالنهايات قادمة لا محال.

١

تمنيت لو أني عَدلت عن فكرة رحيلنا إلى الإسكندرية قبل أن يحدث، لا يمكن إشراكهم أمري الآن. مهما حاولت توضيح موقفي، لن يتفهمني أحد. تلك المساحة بداخلي تشبه تمامًا كرة التنس. إن لم أتخلص منها سريعًا سينتصر خصمي دون أن يقطر قطرة عرق واحدة. فقط تخلص منها قبل أن أفعل، تمنيت لو أن بإمكاني ضرب رأسه بالمضرب عوضًا عن الكرة.

سألتها وأنا أُداعب دميتها:

ـ ممكن ألعب معاكي؟

ـ مش أعرف، شوف نانسي تلعب معاك ولا لأ.

كانت تشير إلى الدمية وهي تشيح بوجهها للجهة الأخرى.

ـ بس دي مش بتتكلم.

سايرتها. كانت علاقتي بها لا تزال يشوبها بعض العوائق.

ـ خلاص لو أتكلمت ممكن تبقى تلعب معانا، لما تتكلم هأقولك. مش تزعل مني بليز بس دي ألعاب حقيقية. تمنعت مني.

برغم أن ما حدث كان أكبر من أن تدركه إلا أنها لم تغفر لي خطيئتي بعد، حين حاولت سمر تصفية ما بداخلها تجاهي.

ـ بابي مش بيحب لالا.. هو سافر وأنا نونة وخلانا نمشي من البيت وأسيب بوكا هناك لوحدها بتعيط.. قوليله لالا حب مامي وبوكا

وبس.

كان هو الرد الذي ألجمها. تسبق سنها بمراحل كثيرة، تعجبت هذا التفكير محصلة مرحلة الحضانة فقط؟ تخيلت بأنهم يدرسون حقوق الإنسان للأطفال، ترحمت على المدارس الحكومية التي خاطبت عقولنا أخيرًا في الصف الثالث الإعدادي، بعد أن توقفت عقولنا عن محاولة التعامل بجدية فتناولنا الأمر على أنه نوع من أنواع الإباحة المرخصة.

بعد أن رأت سمر ذلك من يارا كان من السهل إقناعها بضرورة إزالتي لذلك الحاجز بنفسي قبل أن تشيد خلفه مدنًا تحمل بين شوارعها الضغينة لي. كنت أنتوي نسف عمدان البناء قبل أن تُنشأ. لم أخبرهم بذلك الأمر، فقط أخبرتهم بأنني سأصطحبها للتنزه.

عندما علمت سعدت بذلك، ارتدت أفضل ما لديها بعد أن قبلتني قبلة تمنيت أن لا تندم عليها لاحقًا. توترت وأنا أرتدي ثيابي عندما وقعت عيني على نتيجة الحائط مجددًا. كان مظهري أفضل بدون لحية عندما حشرت جسدي في سترة جلدية، تحسبًا لبرودة الجو في المساء. خرجت إلى الصالة كعريس ينتظر عروسه. أتت تتحلى بها ملابسها. تشابكت أناملنا. واتجهنا إلى الباب:

ـ يوووسف، تليفونك.

نادت فاتن وهي تشير بهاتفي كنت قد تعمدت تركه، ابتسمت ابتسامة خرجت غيظًا وأنا أشكرها قبل أن أضعه في جيب سترتي؛ بينما هي تغلق الباب خلفنا.

***

حرصت على أن تقضي أمسية لا تُنسى، اصطحبتها إلى مدينة الألعاب الترفيهية، مرحنا كما لو أننا لن نمرح بعد اليوم لم أعص لها أمرًا. ركبت معها جميع الألعاب التي تفضلها باستثناء بيت الرعب، فهي كانت تخشى ولوجه بعد أن عاصرت بيتًا حقيقيًا للرعب، لا لوم لها على ذلك، أنا نفسي أصبحت أخشى أن أدلف إليه فأجد شبح أحمد يقبع في انتظاري:

ـ بابي أنا بحبك أوي أوي أوي. كانت صادقة.

ـ بابي بيموت فيكي يا روح قلب بابي. كنت أتألم.

أكملت:

ـ أيه رأيك يا قلبي نروح نجيب كل الألعاب بتاعتك.

ـ هيييييييييييييييه.

إنها نسخة طبق الأصل من سمر. كانت تلك عادتها عندما تشعر بالسعادة. تنطقها وهي تصفق بيديها، تأملتها. كانت رائعة اليوم. ورثت كل شيء من أمها. لن أشعر بفقدانها تأكيدًا لدي النسخة الأصلية. نظرت إليّ بابتسامة طفوليةٍ، زادت من الأدوات الحادة التي تعبث بداخلي. كان الألم لا يحتمل. لم أكن أملك المزيد من الخيارات.

كان ذلك هو سبيلها الأوحد نحو الخلاص..

لا مفر منه..

***

قالت ونحن ندلف من باب المحطة.

ـ تعرف، لما أكبر وأبقى قدك واشتغل زي مس هدى.. ها احبك كتير وأجيب لك حاجات حلوة زي أنت ما بتحبني كده.

ضربت الدموع وجنتاي بغتةً. في لحظة كنت سأعود أدراجي، لكن صورة الفتى مرت أمامي مجددًا.

لن ينالها مطلقًا..

إنها ابنتي..

ـ يوووووه، ممكن تربط لي الشوز.

كنا نصعد الدرج متجهين إلى منطقة حجز التذاكر، دنوت أرضًا إلى حذائها. وجدته مربوطًا. احتضنت رأسي بذراعيها قبل أن تقبلني وهي تمسح البلل عن وجنتي بيديها:

ـ مش في عياط هنا.. مفهوم.

كانت مدهشة. حالها كحال النسخة الأصلية منها. حاولت التماسك، حملتها من على الأرض بين ذراعيي وأنا أُدغدغها بفمي؛ لتضحك وأضحك معها. أخبرني الموظف أن لا قطارات متجهة إلى الإسكندرية قبل السابعة مساءً:

ـ بابي ممكن تشيلني أشوف؟ طلبت يارا.

أكملت في توسل طفولي وهي توجه حديثها إلى موظف الحجز:

ـ ممكن بليز تشوف تاني عشان اللعب بتاعتي بتعيط لوحدها هناك.

قابلها ضاحكًا قبل أن يسألها:

ـ اسمك أيه؟

ـ لالا اللي بحبه.. بس هو المفروض.. يارا يوسف، ميس هدى قالت لي أقول كده.

ازدادت ضحكاته:

ـ متخافيش يا لالا بابا هيوصلك بسرعة عشان تطمني على كل اللعب بتاعتك.

ـ يا رب بقا.

كانت قلقة حقًا.. أخرجتها بنبرة طفوليةٍ بحتة.

ـ ربنا يخلي يا رب، وما يحرمك منها أبدًا.

جملته كانت رياحًا جليدية أصابتني بالتجمد. غيرت وجهتي. بعد أن أوقفت تاكسي وأمرته أن يتجه إلى محطة الأتوبيس. من نافذة الأتوبيس ودعنا الإسماعيلية. وهي تتوارى خلفنا في هدوء..

***

٢

ما أن دلفنا من باب العقار حتى استقبلنا بحفاوة بالغة الهواء الساخن، حُجز في الخارج لم يكن يمتلك تصريحًا كي يدلف إلى الجحيم الذي - على غير المتوقع - كان ينبض ببرودة مميتة غارقًا في الظلام. يختلف المشهد الآن عما كان عليه عندما عدنا جميعًا إلى المكان منذ عدة شهور مضت. الآن لا يوجد إضاءة أيضًا لا رائحة طلاء أو مطهرات للأرضية، رائحة الأتربة تطغى على كل شيء، تعثرت قدمي في الظلام وهي تبحث عن بداية الدرج حتى وجدته، كانت يارا تواجه صعوبة أيضًا في تحديد الدرجات وهي تتشبث بيدي حتى أتى شعاع ضعيف من الضوء، كان مصدره شاشة هاتفي حاولت تحديد الخطوات على ضوئها. كانت تكفي للإنارة في ذلك الظلام الحالك. أخيرًا وصلنا إلى الطابق الثاني.

ما إن وضعت المفتاح في الباب حتى انفتح مُصدرًا صوت صرير يصم الأذان، كما لو أنه لم يُفتح منذ زمن بعيد حتى أصاب الصدأ مفصلاته. عبثت أصابعي في الحائط تبحث عن مفتاح الكهرباء إلى أن وجدته، عندما كشفت الأضواء ظلمة المكان تراجعت يارا للخلف خطوة واحدة وهي تمسك بأسفل سروالي:

ـ بابي، يلا نمشي لالا مش عايزه لعب. نطقتها فزعة.

كانت الكلمات المتوقعة من أيًا كان كانت لتقع عيناه على المشهد من أمامنا، الأثاث أغلبه محطم، الأرضية تعج بالقمامة تتوارى أسفلها

الحشرات هاربة من الإضاءة التي خرقت الظلام؛ ليستشعروا معها الخطر ويبدؤون بالفرار. المنظر الأكثر رعبًا كانت قطرات الدماء المتحجرة التي تغرق علب البيتزا الفارغة، خلفتها تلك الليلة التي واجهت فيها ذلك الفتى. أُغلق الباب خلفنا في عنف من تلقاء نفسه ارتعدت. شعرت بالبرودة تزحف إلى عروقي. لم أكن أشعر بيارا. إلا أنها كررت كي تشعرني بنفسها:

ـ بابي، لالا خايفة. بحثت عن الحنان.

ضحكت وأنا أنظر إليها، نظرت إليّ مندهشة في اللحظة التي تدفق من سروالها خيط من الماء على الأرض، ازدادت ضحكاتي، تعجبت وهي ترتعد. كانت قد بدأت في البكاء ومحاولة إثنائي عن ما يحدث حتى وإن كانت لا تفهمه، فقط تفهم أنه لا يجب أن تتواجد هنا.

بينما أنا كنت أضحك بسبب عجز ذلك الفتى من الاقتراب منها برغم كونها قد أتت إليه بنفسها، إلا أنه لا يقوى على العبث معها وهي بصحبتي. إنه يشعر بالعجز الآن لم يكن يتوقع خطوتي مطلقًا. تخبطت خطته بأكملها بسبب مبادرتي الذكية، يجب عليه الآن إعادة ترتيب أوراقه كي يربح ولن أسمح له بذلك الآن.

إنها صغيرتي، لا صغيرته..

فليذهب هو إلى الجحيم..

صوت بكائها منحني لذة رائعة، شعور لا يصدق من النشوة، شعرت بها ترتجف ويدها تقبض على سروالي. أعلم الآن بأنه قد أصبح بداخلها. ويريد استعطافي كي أتركها له يهنأ بها في الموعد الموعود.

يعزف على وترى الحساس ببكائها.

جذبتها من شعرها في عنف. صرخ الشيطان متمثلًا في صوتها. كان صوت هاتفي الذي قد بدأ في الرنين يمتزج بصوت صراخ الشيطان القادم عبر حنجرة صغيرتي. ألقيت الهاتف أرضًا ، كي لا يشغلني عن مهمتي ذات الهدف السامي والنبيل، ضمان الخلاص للجميع، ما أقحمتهم فيه سأخرجهم منه. سحبت شعرها واتجهت إلى الداخل. كانت تصرخ بهستيريا. التقطت فازة الأزهار من الأرض. وهشمتها على رأسها الصغير. لتسقط غائبة عن الوعي في صمتٍ أسعدني.

عندما عاد إليها وعيها كنت أجلس على مقعد الصالون مراقبًا في حالة فريدة من اتزان الأعصاب، كنت أستمتع بالذي يحدث، حاولت أن تصرخ مجددًا قبل أن تكتشف أن فمها قد أصبح خارج نطاق الخدمة بفضل ذلك الشريط اللاصق الذي تكمم به. اتسعتا عيناها في محجريهما. ألتوت ألمًا.

أسف يا صغيرتي كان لا بد لي من تقييد أطرافك.

أصبح يسكنك الآن. من بعيد رأيت خياله يتحرك مقتربًا في ظلام الممر المؤدي إلى الحمام، كان قادمًا إلينا في خطوات بطيئة، ظهر شيئًا فشيئًا بعد أن أصبح في مرمى المصباح في الأعلى. وقف بوجهه الشاحب ينظر إلى يارا في استمتاع، وعينان تنبضان شرًا. قطعت الصمت وأنا أجلس في هدوء أُحسد عليه في ذلك الموقف المهيب:

ـ أيه يا عريس؟! جيبتهالك لحد عندك.

أتى صوت الفحيح دون أن يتحرك الشق في وجهه الذي من المفترض

هو فم:

ـ عرفت منين إني جواها؟!

ضحكت في صوت بلغ أرجاء المنزل وأنا أجيبه ساخرًا:

ـ أنت نسيت إني أنا اللي قضيت عليك أول مرة؟ أنا أكتر واحد عارف تحركاتك وعارف نقطة ضعفك.

ـ أرجوك. كان يتوسل.

ضحكت، الآن أصبح كلانا يفهم الآخر. إنه أضعف مما كنت أتخيله، يعلم جيدًا بأن مخططي للخلاص سيفلح. يعلم بأنني قادر على إرساله إلى الجحيم الأبدي الآن..

نظرت إلى عينيه مباشرة..

كانتا تنبضان بالخوف الآن..

لقد نجحت..

كان يراقبني ينتظر أن أعفو عنه. لكنني لن أؤمن مكره، حزمت أمري نظرت إلى يارا. كان الزراق قد بدأ في ضرب وجهها وهي تتلوى محاولة التملص من قيودها، كانت تنظر إليّ في استعطاف، لم أكن أشعر بأدنى شعور للشفقة تجاهها، أعتبر الشفقة خيانة في حقها إن تركتها دون خلاص إلى أن يأتي اليوم الموعود، حينها لن تفلح معها جميع شفاقات العالم مجتمعة.

استشعر ما أنا مقدم عليه. بدأ في الصراخ. كان صراخه بصوت متحشرجٍ يصم الأذان، حاولت السيطرة على أعصابي التي بدأت

في التراخي بسبب الصوت الذي يصدر منه. البيانو عاود العزف. الجميع يستشعرون الخطر. يريدون التأثير فيّ، تشبثت في سبيلنا الأوحد إلى الخلاص.

اقتربت من يارا ببطء، عرقلت يده قدمي. سقطت على وجهي. شعرت بالخدر يسري في جسدي. كنت أقترب من اللاوعي. عزمت على أن أتم مهمتي، تجاوزت العراقيل والصعاب. زحفت متثاقلًا على وجهي تجاه يارا. كانت تحتضر في مكانها. تمنيت أن تغفر لي ما سيحدث الآن، من أجلها سأفعله، ليس لأجل أحدٍ سواها، أزحت بيدي زجاجة مياه فارغة وأنا أزحف إليها.

بعد أن وصلت أخيرًا كانت أوصالي تغرق في الخدر، قلبي يزداد في الخفقان والدماء تجري في عروقي بدافع الأدرينالين. تحسست الشريط اللاصق على فمها قبلت جبينها وأنا أنزعه؛ لتقابلني بصرخة جنونية ازداد معها نهر الدموع الذي ينبع من عيناها ليصب على ملابسها. عانقتها. لم تكف عن الصراخ في ذعر. بدوره الفتى بدأ في الصراخ. نظرت إليه وضحكت.

قبل أن تقبض يدي على عنقها ضاغطة..

اتسعت عيناها هلعًا وهي تتشبث بأنفاسها الأخيرة..

حكمت قبضتي أكثر..

مرت ثوان بعدها..

سكنت للأبد..

أصبحت جثة هامدة بين يدي، في اللحظة التي صرخ فيها الفتى قبل

أن يتشقق و يسقط رمادًا.

ذهب إلى الجحيم. استلقيت إلى جوارها أبكي فقدانها بعد أن حررتها من قبضتي.

الآن هي عروس في الجنة..

***

البداية

التضحية هي تلك التي تحدث منك في سبيل الآخرين،

لا في سبيلك.

١

أتت الراحة. حتى وإن ألمت نفسي في سبيلها، أفضل أن أفقد شيء في سبيل جميع الأشياء.

لم أعد أنتظر الألم ولم أعد أسببه لمن هم حولي، نلت الخلاص للجميع الآن. نستطيع العيش في سلامٍ بعيدًا عن ذلك المكان أو بداخله؛ فقد عاد كل شيء إلى طبيعته.

كانت الثالثة صباحًا تقريبًا، لم أنشغل كثيرًا بتحديد الوقت. في الخارج غرقت الشوارع في سكون رائع يتناغم تمامًا مع سكوني الداخلي، يقطعه من آن إلى آخر صوت هدير ماتور سيارة مسرعة يستمر ثوانٍ قبل أن يختفي. مثله كمثل جميع الأشياء السيئة. افترشت القاذورات التي تملأ الأرضية جالسًا مستندًا بظهري إلى الحائط على مدد الضوء القادم من الخارج، تواجهني على الجهة الأخرى يارا ساكنة تنعم بسلامٍ لم تنعم به في حياتها قط.

إنها تشبه الملائكة الآن..

رائعة أنت يا صغيرتي..

صوت طرقات شديدة متصلة على الباب قطعت حالة الصفاء الذهني التي كنت عليها. لم أتحرك قيد أنملة من مكاني. ارتفعت الطرقات وأصبحت أشد، ودوى في الخلفية صوت سمر تتوسل باكية:

ـ يوسف، يوسف عشان خاطري أفتح. يوسف أفتح يا يوسف.

لم ولن أسمح لشيء بالعبث في ذلك السلام الذي اصطنعته لنفسي، تجاهلتها قبل أن يأمرها صوت آخر بالابتعاد عن الباب بعدها نال الباب عدة دفعات عنيفة. توقعت أنها بالكتف، زادت سعادتي وأنا أتخيل مقدار الألم الذي سيتألمه ذلك الشخص بالخارج. قديمًا كانوا يصنعون الأبواب. إذا أردت الاقتحام عليك بجلب المزيد منك. بعد عدة ضربات عنيفة. خذلني الباب وسقط أرضًا.

عندما خطت أقدام سمر أعلى الباب المُسجى على الأرض إلى الداخل كان يلحق بها حسام، وقفت تتطلع حولها وقد أصابها الذهول من مظهر الشقة الذي أمامها، مسحتها كجهاز للرصد قبل أن تقع عيناها على يارا المنزوية في أحد الأركان جثة هامدة لتهوى أرضًا مغشيًا عليها في صوت ارتطام هائل، لم أكن أشعر بشيء سوى السلام الداخلي، كنت أجلسٍ مراقبًا في هدوء، بينما حسام قام بإخراج هاتفه من ثم وضعه على أذنه في حركة آلية بعد أن طلب رقمًا، توقعت بأنه رقم الشرطة.

***

تذكرت الكائنات الأسطورية في المسلسل التليفزيوني Herclues وأنا أتطلع إلى ذلك الغبي قبل أن ألعنه في سري:

ـ قوم فز أقف.

قالها وهو يجذبني عنوة للأعلى من أسفل ذراعي بينما كنت أنا جالس في أرضية السيارة، ألمتني الأصفاد في يدي وهو ما جعلني أمتثل لأمره خشية القليل من الجذب والكثير من المعاملة غير الآدمية، هؤلاء

الحمقى، كنت أنا سبب في خلاصهم لو لم أفعل ما فعلت لكان بلل أضخمهم سرواله في اللحظة التي مر فيها من باب الشقة اليوم، في دولة أخرى كانوا سيصنعون لي تمثالًا قبل أن يعلنوا أن اليوم عيد وعطلة رسمية. عيد الخلاص. ضربت الحماقة دولتي.

عندما خرجت من سيارة الشرطة واجهني مبنى يتكون من دورين تكتسي حوائطه بالقرميد الأحمر أسفل لافتة زرقاء اللون كُتب عليها «الشرطة في خدمة الشعب»، كان المكان يُعرف على أنه «قسم شرطة سيدي جابر»، اندهشت من كمية المجندين التي كانت في استقبالي، كان المكان يعمل كخلية نحل الجميع يترقب وصولي. تبدأ الآن فقرة نسوان الفرح. الجميع يغتاب ذلك الذي بلا رحمة قد أقدم على قتل ابنته. مع أول خطأ يتناسون المعروف.

ألم أكن أنا سبب في خلاصكم جميعًا؟!

إن كنت تركتها لكنتم أصبحتم في تعداد الجهاز المركزي للإحصاء تحت بند الموتى الآن، سأحرص على أن تحصلوا جميعًا في مقدمتكم ذلك الغبي الذي يقودني خلال الممر إلى داخل القسم على ذلك اللقب حين أحصل أنا على حكمي بالبراءة. أثق تمامًا في القضاء. إن كانت قد طالتكم يد الفساد وتسعون إلى تحقيق مجد زائف على حساب الآخرين، فلن يسمح لكم ملائكة العدل بذلك.

كنت قد وصلت إلى الدرج بعدما مررت بعدة وجوه وقفت متطلعة إلى الطالة المميزة للمجرم الأشهر في مصر الآن، فكرت في عدد البرامج التي ستتناول ما حدث دون أن تتطرق للحقيقة، ربما أستثني

تلك التي تعشق قصص الجن الملفقة منها، فأمامها الآن قصة جن مؤكدة لن تدعها تمر مرور الكرام. وصلنا إلى الطابق الثاني يقتادني اثنان من العمالقة، إلا أن التعامل قد أصبح أكثر آدمية، شممت رائحة حسام في الموضوع، لم أُهان منذ أن دلفت من باب القسم سواء باللفظ أو بالفعل. كانوا يراقبون فقط حتى أولئك الذين تحمل أكتافهم نسورًا، استشعرت بأنني قد أكون من نصيب ملك الغابة، علمت بأنني محقًا حين وجدتني أقف مواجهًا إلى باب خشبي بجواره لافتة نحاسية اللون كُتب عليها بالأسود «مكتب رئيس المباحث».

في الداخل كانت تتسلل خطوط الشمس الذهبية من النافذة المغلقة على استحياء، المكان أصبح غرزة قانونية. امتزجت رائحة التبغ الغنية بالهواء من حولي. في الأرضية سجادة غالية الثمن من تلك النوعية التي تمتص صوت الخطوات، هنالك مكتب خشبي أسود اللون أمامه مقعدين ومنضدة، وفي الخلفية على الحائط صورة كبيرة الحجم للسيد الرئيس - أطال الله في عمره - على اليمين منها يوجد ساريان يتدلى من أحدهم علم جمهورية مصر العربية، بينما الآخر يحمل علم وزارة الداخلية المميز باللون الأزرق في مواجهة الباب مباشرة، في اليسار هناك طقم أنتريه جلدي أسود اللون وفي اليسار مكتبة زجاجية تحوي بعض النياشين والأوسمة لا وجود للكتب بها. كان حسام يعامل معاملة أصحاب الدار وهو يجلس إلى مقعده أمام المكتب بينما يجلس آخر تعرّفه اللافتة بأنه:

مقدم / عمر الغول

رئيس مباحث قسم سيدي جابر

جاد الملامح لديه صلعه تتوسط رأسه وحاجبان كثيفان الشعر، بينما يتملك في وجهه أنف متوسطة الحجم وشفاه غليظة ممسكًا بسيجارة من تلك النوعية التي يتجرعها الفاسدون أمثال محمد فتحي الذي يجلس على المقعد الآخر، من الكائنات التي تعث في الأرض الفساد. لا بد وأنه هو من أهداهم أصابع المحشي هذه. عندما ولجت من الباب بصحبة العملاقين بإشارة من رئيس المباحث فُكت الأصفاد التي تقيد يدي بعدها، أمرهم باستدعاء كاتبٍ من أجل كتابة المحضر. قام حسام من مكانه جلس إلى مقعد الأنتريه الجلدي وشرع الثلاثة في مراقبتي وأنا أجلس إلى مقعد المكتب.

لم يبادر أيًا منهم بالتحرك، إن لم نأخذ في الاعتبار يد رئيس المباحث التي تعبث ممسكة بقادحة معدنية يشعلها قبل أن يرسل الغطاء فوق النار؛ ليخمدها من ثم يرفع الغطاء مجددًا ليشعلها. بعد عدة طرقات على الباب أمر رئيس المباحث أمين السر بالدخول. كان شابًا نحيلًا يرتدي زيه الميري بدون كتفات يحمل بين يديه ملفًا به بعض الأوراق.

ـ اسحب يا بني الكرسي وأقعد جنبي هنا. أمره رئيس المباحث.

سحب الشاب مقعدًا حديديًا من أحد الأركان، يبدو وأنه مخصص له قبل أن يضمه إلى المكتب بجوار رئيس المباحث؛ ليفترش محتويات الملف الذي كان يحمله أمامهما ويمسك بالقلم في انتظار الانقضاض

على الفريسة:

ـ افتح المحضر.

شرع أمين السر في الكتابة بعد أن حدد الوقت بالنظر إلى ساعة يده.

ـ أيه علاقتك بالمجني؟ قالها وهو يميل نحوي قليلًا.

ـ بنتي. أجبته إجابة محددة.

ـ تمااااام.. كان أيه الدافع القوي اللي يخليك تخنق بنتك لحد ما تموت في أيدك؟

لم أعد أشعر بالرجفة عندما أتذكرها وهو ما ساعد على ثباتي والهدوء الذي كنت أتحلى به، قد كانت شيطانًا:

ـ الجن.

تبادل رئيس المباحث نظرة ذات مغزى مع محمد فتحي، بعده وجه نظراته صوب حسام وهو يترك القادحة من يده على المكتب قبل أن يعتدل في جلسته، كما لو أنني حصلت على تركيزه للتو:

ـ عايز تقولي إنها كانت ملبوسة؟

ـ ملعونة.. كانت معلونة. صححت له.

بدأت في التلعثم والارتباك، شعرت من تلك النظرة التي تبادلها أنهم على وشك الزج بي في مؤامرة من تدبيرهم الشخصي، ربما يسعيان إلى قضية رأي عام وها أنا كبش الفداء.

ـ يعني أنت معترف إنك قتلتها؟ كانت نبرة إخبارية لا استفسارية.

ـ معترف. كانت إجابتي قاطعة.

بعدها كانت الأسئلة روتينية، قبل أن يأمر بإغلاق المحضر، من ثم طلب مني أن أوقع على أقوالي، مسكت القلم بوهن. أصبح توقيعي أكثر رداءة من ذي قبل. بعد أن نظرت إلى الاسم الذي كُتب أمامي، كان من المفترض أنه اسمي إلا أنهم يدبرون المكيدة لي. تأكدت الآن، سأقلب الطاولة على رؤوسهم جميعًا عندما أُعرض على النيابة. الغريب في الأمر أنني لم أجد مرافعة أو اعتراضًا من محمد فتحي أو ردة فعل من جانب حسام. كانوا يبغضونني، عندما هم المخبر الذي قيد يدي مجددًا باصطحابي إلى الحجز حتى يحين موعد عرضي في الصباح على النيابة، حانت مني نظرة إلى حسام.

كان الشيطان يرتدي زي الملائكة..

كانت نظرته نارية. وهو ما جعلني أعود مجددًا إلى الشك في طبيعة العلاقة التي تربطه بزوجتي.

هل تلك هي فرصتهم في الخلاص؟!

إذًا ماذا سيفعلون كي يتخلصوا من فاتن؟!

هل سيزجون بها إلى السجن أيضًا؟؟

***

٢

رائحة الجوارب النتنة جعلتني أفكر في رائحة تغوط جماعي للكلاب في درجة حرارة ٧٣ درجة فهرنهيت بينما هم يركبون سيارة الترحيلات في طريقهم للعرض على النيابة. الرائحة كانت كفيلة بأن أُعرض على النيابة في عدة جرائم قتل بدلًا من أن أُعرض في واحدة فقط. على الأقل سيشكرني المجتمع على القيام بذلك الفعل البطولي. وبعدها سيطلقون عليّ لقب محارب رائحة الحيوانات.

تساءلت عما يحدث في الأسفل كان هنالك ما لا يقل عن إحدى عشر مراسل صحفي، تطلعت إلى وجوه الرفقاء من حولي لم أجد بهم ذلك الثوري الذي قد يجذب خبر اعتقاله وكالات الأنباء، أكاد أجزم بأن جميعهم يعرضون في جرائم أخلاقية بحتة. هؤلاء فقط الذين كانوا أمامي ما أن هبطت أرضًا حتى ظهر من العدم عشرات آخرون جميعهم يحملون أدوات التصوير المختلفة بداية من كاميرات الهواتف نهاية بكاميرات الفيديو، التفوا حولي كجحافل النمل التي وجدت للتو قطعة من الحلوى تكفيهم فترة البيات الشتوي بأكملها، بدأت الأسئلة تنهمر عليّ تلقائيًا دون أن ينتظروا مني التوقف، ربما فطنوا بأن لن يُسمح لهم فحاولوا الظفر ولو بكلمة مني، يبدو وأنها قد أصبحت قضية رأي عام الآن ، بالفعل حاولت القوات الأمنية إبعادهم ولكنها لم تفلح في كتم أفواههم بينما جذبني الأحمق في عنف تجاه المبنى، استطعت تحديد واحد من الأسئلة الموجهة إليّ:

ـ يوسف.. ممكن تقولي المرة دي كانت زي المرة اللي فاتت ولا الجن ليه دخل في الموضوع؟

ابتسمت للعدسات التي بدأت في رصدي وأنا أنساق للأمام..

شعرت بالاطمئنان عندما أصبحت داخل وزارة العدل، الذي لم أجده لدى الداخلية.

***

لم يختلف الأمر كثيرًا، في الداخل كانت كل هذه الأشياء التي كانت في مكتب رئيس المباحث باستثناء عدم وجود صورة للرئيس على الحائط، أيضًا لا يوجد شعار وزارة الداخلية. يوجد مبرد متوسط الحجم في أحد الأركان واختلفت لافتة المكتبة؛ لتُعرف الجالس على أنه:

فارس عادل

رئيس نيابة سيدي جابر

تبًا.. رئيس النيابة شخصيًا في انتظاري. إنهم يعطون الأمر أكبر من قدره تأكيدًا. ما أن أُغلق الباب خلفي حتى أمرني رئيس النيابة بالجلوس دون أن ينظر نحوي كان منهمكًا في تصفح بعض الأوراق على المكتب أمامه، بينما كان أمين السر في وضع الاستعداد. هو الذي قد أعارني انتباهًا وهو يتفحصني من الأعلى إلى الأسفل. عاود الباب الطرق قبل أن يعبر آخر كائن على وجه الأرض أريد رؤيته الآن:

ـ محمد فتحي بدر، حاضر عن المتهم.

كان ينطقها فخورًا بنفسه بينما يخطو خطوات إليه إلى الداخل. لم يرفع رئيس النيابة رأسه ولم ينطق اكتفى بالإشارة إلى الكرسي الآخر كي يجلس محمد. كان الأدرينالين قد عاود التجول في شراييني مجددًا، الارتباك تمكن مني، لم أشعر بضعف موقفي من قبل سوى الآن. وسائل الإعلام جميعها في الخارج. رئيس النيابة بنفسه يجري التحقيق. والمحامي الأشهر في مصر يترافع عن المتهم الذي من المؤكد أنه الآن قد أصبح الأشهر.

رفع رئيس النيابة وجهه أخيرًا من على الأوراق التي أمامه استشعرت بأنها في غاية الأهمية من تلك النظرة التي وجهها نحوي، كان يرتدي نظارة طبية تضيف على وجهه طالة إضافية من الوقار الذي كان ظاهرًا منه فعليًا. تنفست الصعداء عندما ابتسم لي. قام من مقعده واستدار حول المكتب بعدها أخذ في التجول ذهابًا و إيابًا. امتصت السجادة الوثيرة في الأرض صوت وقع أقدامه الرتيبة، كان عاقدًا ذراعيه يتحرك ببطءٍ. ربما كان يفكر الآن. ثوان من الصمت قبل أن يتحدث:

ـ الأوراق اللي جت مع المحضر دي.. إنت اللي بعتها يا أستاذ محمد.. صح كده. لم يكن يستفسر.

ـ بالظبط كده يا فندم، ومعايا هنا كمان...

هم بفتح حقيبة يده التي حملها من الأرض؛ ليضعها أعلى المنضدة أمامه إلا أنه لم يكمل:

ـ تمام تمام.. أنا هاطلع على كل الأوراق فيما بعد.. رجائي من حضرتك

دلوقتي تتابع التحقيق لغاية ما أطلب منك الكلام.

جلست أراقب في صمت، كانت تتكون بداخلي جبال من الجليد تُجمد أوصالي. إنهم بالفعل يتواطئون معًا. ما حدث فيما مضى يحدث الآن. التاريخ يعيد نفسه مجددًا.

أجابه محمد:

ـ طبعًا يا فندم.. ممكن أولع سيجارة؟ كان يمسك بصباع السجق في يده.

ـ للأسف يا أستاذ.. أنا ما بحبش ريحة الدخان.

ـ طبعًا طبعًا. أعاده مجددًا إلى الحقيبة.

ـ اسمك الثلاثي. قصفت جبهتي.

انسحبت جميع الأضواء من الغرفة. سكون تام أزعجني. تسارعت أنفاسي في وتيرة انفعالية. كف رئيس النيابة عن الذهاب والإياب. فقط وقف يراقب قسمات وجهي التي أعلم جيدًا بأنها تعمل على فضحي الآن.

ـ مكتوب في البطاقة.

انفعلت متلعثمًا، حاولت الخروج من الخندق الذي حُصرت فيه للتو، وبالفعل حدث ما كنت أتمنى حدوثه.

ـ اكتب يا بني. أمر أمين السر.

ـ قولي يا يوسف، أيه بالظبط اللي دفعك إنك تقتل المجني عليها يارا يوسف خالد؟

النظرة من أسفل نظارته كانت شيطانية، كان يلعب على أعصابي اللعين.

ـ انا ما قتلتهاش. زمجرت مدافعًا.

ـ واعترافك في محضر الشرطة.. كان تحت تهديد؟

ـ لا.. كان اعترافي.

ـ أومال؟

استدار ليجلس على مقعده مجددًا:

ـ الموضوع فيه تفاصيل كتير أنا...

قاطعني:

ـ محدش فينا مستعجل.. أتفضل أحكي من أول ما تقدر تحكي إن شاالله من طفولتك. كانت لغته أمرة.

كنت على حافة غير ثابتة، تتأرجح. بينما أتمايل أنا فوقها يمينًا و يسارًا لا أعلم في أي الجانبين سأسقط؟

لكنه سيحدث عاجلًا أم آجلًا، أحكمت إغلاق عيناي بقوة. انفصلت عنهم جميعًا. كان جسدي قد بدأ في التعرق، كان الظمأ يضرب حلقي. لكن أي ماء سيفلح في إخماد بركاني.

تلعثمت وأنا أقصّ أمامهما كل ما حدث بداية من سفري بعد وفاة أبي وأمي من ثم عودتي وزواجي بسمر مرورًا بانتدابي على رأس بعثة طبية في الخارج ، وبعدها عودتي نهاية بإنهائي لحياة ابنتي من أجل الخلاص.

كان رئيس النيابة في جم تركيزه، بينما كنت أحصل على انتباهٍ محمد فتحي بين الحين والآخر، أما أمين السر فقد شرع في الكتابة لم يتلفت إلى شيء سوى محاولة مجاراتي، بعد أن انتهيت.

صمت رئيس النيابة قليلًا قبل أن يعبث في الأوراق التي أمامه باحثًا عن ورقة بعينها، قبل أن تقوم أصابعه برفع ورقة بيضاء بعدها قام بوضعها أعلى كومة الورق؛ كي تظل أمامه، لم أستطع التركيز فيما هو مدون عليها، لكن كان من الواضح أنها ورقة من جهةٍ حكومية ما، دل على ذلك كمية الأختام التي خُتم بها أسفل الورقة:

- قولتلي إنك رجعت من السفر واتجوزت سمر، تقدر تفتكر رجعت سنة كام؟

- مش فاكر بالظبط، بس إحنا اتجوزنا ٢٠١٥، أنا رجعت قبلها بسنتين.

كنت أتصبب عرقًا، استشعرت جيدًا ما يرمي إليه.

- قولي يا يوسف، أنت خريج جامعة أيه؟ قالها وهو يضع تركيزه عليّ.

- جامعة الإسكندرية.

- سنة كام؟

- ٢٠٠٩.

- درست الطب كام سنة؟

- سبع سنين.

كان الحديث على سجية محمد فتحي الذي قد بدأ في تبادل نظرات باسمة ذات مغزى مع رئيس المباحث، اللعين أتى للترافع عني أم للترافع عن النيابة اليوم. ضحك رئيس النيابة:

ـ كده هنحقق الأول في ادعائك بأنك طبيب نفسي. وتزويرك شهادات وممارسة المهنة بيها. أنت نسيت إنك كنت مسافر يا دكتور لمده ١٢ سنة ورجعت سنتين منهم.

قالها وهو يعبث بالأوراق من أمامه مجددًا؛ للتأكد مما يقول قبل أن يضيف:

ـ ٢٠٠٩ و ٢٠١٠ اللي أتجوزت فيها، السبع سنين قضيتهم أزاي في جامعة إسكندرية؟

الدماء جميعها انسحبت من أوردتي؛ لتتركني أواجه شحوب الموت، جسدي أصابه الخدر لم يكن بوسعي فعل شيء سوى الاستمرار في إثبات قصتي. إنهم يلفقون لي الأكاذيب الآن.

ـ أنا يوسف محمد دكتور أخصائي، تقدر تسأل عني في مستشفى العباسية.

دكتور أخصائي؟! وقولت وأنت بتحكي بأنك طبيب عام.. نعديها.. الورقة اللي قدامي دي.

رفع الورقة في مستوى رأسي بالضبط، ثم أضاف:

ـ بتقول إنك آخر مرحلة تعليم وصلت ليها كانت الإعدادية في ١٩٩٧.. التاريخ ده بيفكرك بحاجة معينة؟

ـ أنا عندي شهود.

صحت بغضبٍ بعدما استشعرت عدم جدوى وجود محمد فتحي، الذي راقب مستمتعًا ما يحدث، اللعين أرسله حسام كي يتأكد من كوني سأُسجن. تبًا لهم جميعًا.

ـ مين هما شهودك؟

قالها وهو يعتدل في مقعده، ويرمقني بنظرة نارية علمت معها بأنه قد استنتج اسم الشاهد.

ـ مدير عام مستشفى العباسية، دكتور خالد محمد منصور.

ضحك رئيس النيابة وهو يخرج ورقة أخرى من بين الأوراق التي أمامه:

ـ الشاهد بتاعك ميت هو ومراته وابنه في ٢٢/٥/١٩٩٧، السنة اللي أنت حصلت فيها على آخر مؤهل دراسي ليك.. في شقتهم الموجودة في العنوان ٨٢٤ طريق الحرية بالإسكندرية.. وده نفس العنوان اللي لاقيناك فيه، بالإضافة إلى جثة المجني عليها يارا يوسف خالد.

لم أكن بحاجة إلى مرآة كي أعلم كيف يبدو مظهري الآن. شعرت بالإعياء وأصفر وجهي من أثر وقع تلك الكلمات الأخيرة عليّ. حاولت التشبث. امتدت أصابع رئيس النيابة؛ لتصل إلى جرس الاستدعاء على المكتب من أمامه بعدها ضغطه دون أن يرفع نظراته من عليّ، ولج من الباب على الفور عملاق من أولئك الذين يعج بهم المكان، أدى التحية العسكرية قبل أن يأمره رئيس النيابة بجلب «دكتور نادر هشام» من الخارج.

بصعوبةٍ تملكت زمام نفسي وأغلقت فمي الذي اتسع من الاندهاش. إنهم يعدون كل شيء، الحبكة بأكملها قد حبكت وأنا كبش الفداء.

ـ من حسن حظك إننا استدعينا شاهد بالفعل.

دلف من الباب المدير الحالي لمستشفى العباسية للصحة النفسية، أعلمه جيدًا منذ أن كان يمتلك شعرًا رماديًا. قام محمد فتحي من مقعده كي يجلس دكتور نادر، واتجه هو إلى الأنتريه؛ ليجلس كما فعل بالضبط حسام في مكتب رئيس المباحث. إنه سيناريو واحد باختلاف الأبطال. تفحصني دكتور نادر قليلًا قبل أن يربت على قدمي برفق، شعرت مع لمسته بطوق النجاة يُلقى إليّ قبل أن أغرق إلى القاع:

ـ اتطمن يا يوسف. نطقها بأبوية.

بادر رئيس النيابة:

ـ دكتور نادر، طبعًا شهادتك مش هتغير حاجة في كونه قتل من عدمه؛ لأنها مثبتة باعترافه وبجميع الأدلة، يتبقى فقط تقرير الطب الشرعي ورفع البصمات، وشهادتك حاليًا مش هاخد بيها في التحقيق. دي بتاعت المحكمة بس ده واجبنا، شهادتك هاتحول مجرى المحاكمة من ناحية، ومن ناحية تانية إحنا عندنا أمل إنه يفوق. كان يقصدني.

كنت في حالة ذهول شديدة من ما يحدث، تساءلت عن هوية أولئك الذين يأملون في أن أستفيق؟ ومن ما سوف أستفيق تحديدًا؟ وكيف

اتحد هؤلاء جميعًا من أجل هدف واحد؟

ـ ماتكتبش يا بني. أمر أمين السر.

ـ أتفضل يا دكتور. سمح لدكتور نادر.

بينما أنا كنت قد اكتفيت بالمراقبة ومحاولة طرد الكوابيس التي أرسلتها ذاكرتي للتو:

ـ أستأذنك في كوباية مايه. طلب الأخير.

ـ أوي أوي.

قالها رئيس النيابة في لهجة ودية قبل أن يقوم متجهًا إلى المبرد بعدها عاد يحمل زجاجة مياه وبعض الأكواب البلاستيكية، وضعهم أمامنا على المنضدة بعدها عاد إلى مقعده مجددًا، كنت بحاجة إلى الماء انتظرت حتى صب دكتور نادر لنفسه بينما أمسكت أنا بالزجاجة تجرعت منها مباشرة، كانت يدي ترتجف وهو ما أدى إلى وجود كميات المياه تلك التي أصبحت الآن تغرق عنقي وصدري، لطفت من درجة حرارة الغرفة التي شعرت وأنها قد أصبحت الآن ٤٠ درجة مئوية بالرغم أن مؤشر المكيف في الأعلى يشير إلى أنها فقط ١٧ درجة. راقبني الجميع وأنا أروي ظمأي، بدوره أيضًا أمين السر أصبح يراقب الآن، وضعت الزجاجة على المنضدة؛ ليبدأ دكتور نادر في حديثه:

ـ دكتور خالد منصور.. كان أستاذي أتعلمت على أيده الطب النفسي الحقيقي أول ما أتعينت في المستشفى كان وقتها هو مدير المكان. كان معاه - رحمة الله عليه - أحمد و يوسف، أحمد كان أكبر

من يوسف بسنتين.

ما يحدث ما هو إلا مسرحية هزلية، إنهم يدعون الباطل يزيفون الحقائق جميعها، كان بداخلي يرتج بعنف. الآن العاصفة تأتي عليّ بلا هوادة، شعرت بالبرودة تجتاح جسدي. قاطعته صارخًا وأنا أقوم من مقعدي:

ـ إنتو كلكم كدابين .. كدابين.

لم أكن من الأشخاص الذين يحبذون الكذب.

ـ أهدا بدل ما أضطر أتعامل معاك تعامل تاني.. أنا لغاية دلوقتي مراعي حالتك.

كانت نبرة رئيس النيابة جدية تختلف كليًا عن الحديث الودي الذي كان يتناوله معي مسبقًا، اضطررت إلى الجلوس مجددًا ومواصلة الاستماع مجبرًا إلى أكاذيبهم. هم يملكون القوى. بينما أنا الجاني لن يتهود معي أحد. وزارة لا تعرف عن العدل سوى اسمه فقط.. واصل دكتور نادر بعد أن هدأت ثورتي.

ـ أحمد كان مريض بالصرع من وقت للتاني كان بيبدأ المرض يتحكم في تصرفاته وبيبدأ يأذي نفسه واللي حواليه. في يوم من الأيام صحي يوسف على صوت ضحك عالي من أوضة دكتور خالد...

كنت أقصر قامة ارتدي بيجامة النوم وقفت متسمرًا من هول المشهد الذي أراه أمامي كنت أراقب من الفتحة الضيقة التي خلفها الباب. الدماء تغرق الفراش أبي مُسجى على وجهه بعد أن طُعن في ظهره من الخلف وأمي إلى جواره غارقة في دمائها. بينما ذلك الشيطان يقف

منتشيًا بنصره. صعقت. بدأت في البكاء وأنا أنسحب إلى الخلف كي لا يلاحظني. بعدها سمعت صوت محبس الماء يُفتح في الحمام. توجهت إلى المطبخ في حذر حرصت على أن لا تصدر أقدامي صوتًا. استللت سكينًا وتوجهت إلى الحمام كدت أن أقضي عليه، لكنني عجزت عن ذلك بينما ظهر الشبح وقام بطعنه في ظهره وحاول قتلي هذا قبل أن أتمكن أنا من الفرار.

حاولت الكف عن التفكير. لكنها الحقيقة. شعرت باضطراب داخلي. لدي جزء يعلم ما حدث جيدًا، وهناك جزء ينكره جملة وتفصيلًا. استمر دكتور نادر في قص ما حدث حتى أتى إلى ذلك الجزء الملفق بأكمله:

ـ يوسف بعدها بقا مريض نفسي. بقا عنده نوع ما من انفصام في الشخصية، بيشوف حاجات مش موجودة وبيعمل حاجات وينكرها، ودايمًا شايف إن كل الناس متفقه عليه.. لما أتمسك وبعد الكشف عليه لاقينا فعلًا إنه بيعاني من الشيزوفرنيا وفي مرحلة متقدمة جدًا.. حكمت المحكمة عليه بالسجن في مستشفى العباسية.. حاولنا كتير نساعده خصوصًا إن دكتور خالد كانت أفضاله كتير علينا كلنا من أكبرنا لأصغرنا.. بالفعل بدأ يمتثل للعلاج وخرج من عندنا بعدها بـ ١٢ سنة، كنا فاكرين إنه بقا سليم مية في المية لغاية. ما أتجوز وقرر يرجع للمكان اللي حصلتْ فيه الجريمة تاني.. مسرح الجريمة أثر فيه بالسلب.. وده اكتشفناه لما ربنا كرمه بأول مولود، بدأ يشوف هلاوس سمعية وبصرية كبرت وبقت

حاجات بيصدقها ويقنع اللي حواليه بيها.. لغاية ما جه اليوم اللي حاول يقتل بنته فيه وهي لسه عندها أيام بدعوى إن الجن عايز يتجوزها.. ساعتها كنا طبعًا بنتابعه بس من بعيد، وشوفنا إن من المناسب إنه يرجع المستشفى تاني فترة بعدها يرجع على الإسماعيلية ومايرجعش بأي وسيلة مسرح الجريمة تاني.

صمت دكتور نادر عن الحديث قليلًا وبدأ في استقبال أنفاسه مجددًا، بينما تبادلت معه أنا حبس الأنفس؛ لم أستطع بكل الوسائل معاودة التنفس. كانت تكبلني الحقيقة التي أنكرها. لكن هناك جزء مزيف، أنا لم أقتل. أنا طبيب نفسي بالفعل رأيت والداي والشيطان جاثم فوقهما لكنني لم أقتله. لقد خرج الشبح من المرحاض وفعلها بعدها حاول قتلي، لم أحاول قتل يارا عندما ولدت إطلاقًا؛ بل حاولت قتل الشبح. إنهم لا يدركون شيئًا جميعًا. سمر تفهمني، سمر تعلم بالتأكيد تعلم. أخرجني دكتور نادر من تفكيري مجددًا:

ـ قبل اليوم المحدد لأنه يطلع من عندنا بأسبوع جت مدام سمر.. ومعاها شخص تاني عرفت بعد كده إنه ظابط مباحث.. اقترحت عليًّا بأن طالما يوسف مشكلته في المكان يبقى نخليه هو اللي يكره المكان؛ لأنه كده كده هيبقا مصمم يرجعه.. كانت الفكرة في إننا نطاوعه وندعي معاه فعلًا إن المكان مسكون، وإنه مش مريض وحبسه ده كان سفر.. بطبيعة حالته؛ لأنه بيعاني من انفصام هو اللي تقمّص الشخصية أكتر مننا وبدأ فعلًا يلبس توب الدكتور.. المهم وقتها كانت المفروض الخطة هاتنتهي لما يبدأ يشوف الأشباح

ويتفق الكل معاه على إنهم موجودين، ومن ناحيتها مدام سمر تأثر عليه إنها بعد المرحلة اللي يوصل فيها لأنه خلاص شاف كتير هاتبدأ في إقناعه يرجعوا إسماعيلية ويبعدوا عن المكان المسكون ده.. كان الموضوع بالنسبة لنا مجازفة كبيرة.. جمعت مجموعة مميزة من الدكاترة وناقشنا الموضوع، كان فيه اللي مؤيد واللي معارض ، في الآخر قررنا ننفذ الخطة تحت إشراف من الجميع وبقينا على اتصال لغاية ما.

ـ بعد إذنك يا دكتور نادر، معلش ممكن لحظة، الجزء ده أفضل إنه يسمعه من حد تاني.

قاطعه رئيس النيابة وهو يعاود الضغط على زر الاستدعاء مجددًا، بعدها أمر العملاق باستدعاء: «مدام سمر من بره، وهات لها كرسي»

تسبب مرور الاسم عبر أذني في تلك الرجفة التي انتابت أوصالي، لم أعلم كيف سأنظر إلى وجهها الآن. تراجعت لأقصى حد سمح به المقعد محاولًا أن أجد لي شقًا أتوارى فيه في اللحظة التي دلفت فيها هي مترددة من الخارج، تحاشت أن تنظر إليّ وتحاشيت ذلك قدر الإمكان بدوري. جلست ترتجف بعد أن وضع لها العملاق مقعدًا، كان أسفل عينيها منتفخًا. ضربه السواد مثله كمثل ما ترتدي من ثياب. لم تَجِف حدقتاها بعد:

ـ مدام سمر، ممكن نسمع أقولك، وهل فعلًا كان فيه مخطط بمسايرة يوسف ولا ما كنش فيه؟

صوتها كان شِبه ميت. حاربت من أجل أن يخرج مسموعًا:

ـ أيوه.. كنت فاكره إن ده الحل.. كنت فاكره إني فهماه أوي.

بدأت في البكاء. كانت عيناها تنزفان دمعًا:

ـ بس كنت غلط.. كنت غبية.

شكرا يا مدام سمر، وشكرا يا دكتور كده تقدروا تتفضلوا.. وهانحتاج شهادتكم بعد كده في المحكمة.

قام دكتور نادر وقامت سمر بدورها متجهين إلى الخارج قبل أن تتوقف الأخيرة في منتصف المسافة ودون أن تلتفت إلى الخلف:

ـ أنا مستنياك تبعتلي ورقتي. كانت تحدثني.

بعدها رحلت إلى الأبد..

***

٣

عدت خائر القوى إلى الحجز بداخل قسم سيدي جابر، قبعت في الأرضية. تجردت من جميع الأفكار، لم أتذوق طعامًا، أيضًا لم أكترث بهؤلاء الحمقى من حولي، خلدت في الصمت إلى أن مرت الأيام. بعدها حدث كل شيء سريعًا.

في جلسة المحكمة بعد اطلاع القاضي على جميع التفاصيل، والاستماع إلى شهادة الشهود، ومرافعة محمد فتحي من أجل إثبات عدم كمال قواي العقلية كما يدعون. حكمت المحكمة عليّ بالسجن المؤبد بداخل أسوار مستشفى العباسية؛ لأعود إليها مجددًا.

حصلت سمر على خلاصها بالطلاق..

وحصلت أنا على الدرس الذي لن أنساه مهما حييت..

لا يوجد بيننا من هو مجرد من الخطيئة، جميعنا نخطئ، القليلون فقط هم من يعترفون بما اقترفوه..

هم كذبوا وأنا أيضًا كذبت..

اضطررت مرغمًا بأن أسايرهم في ذلك الادعاء الباطل الذي ادعوه عليّ..

من أجلها فعلت..

لم أصل إلى تلك المرحلة من القسوة التي تجعلني أفرق بين قلبين عشقا بعضهما البعض. بالتأكيد غبت فترة طويلة كانت كفيلة بأن تقلب

قلبها كي يتعلق به. عدت أنا ؛ لأفسد لهم جميع أحلامهما وأمانيهما التي حاربوني من أجلها، من أجل الظفر بعضهما البعض. مسكينة أنت يا فاتن.

أختك وزوجك!!

مصيبتها أشد من مصيبتي بالتأكيد..

الزنزانة أصبحت الآن أشد برودة بعد أن انسحبت الشمس من النافذة في الأعلى، نظرت مليًا إلى علبة الدهان في ركن الغرفة. قبل أن أتوجه إليها وأن أجذب سروالي إلى الأسفل. لم أتغوط. كانت مجرد رياح. أختلط عليَّ الأمر. رفعت سروالي مجددًا بعدها ذهبت إلى فراشي في الأرض.

أخرجت من أسفل الفراش بعض الأوراق وقلمًا خشبيًا..

لقد قصصت عليكم كذبتهم، ماذا عن كذبتي..

فأنا لست بطبيبٍ للأمراض النفسية، لم أغادر حدود الدولة مطلقًا. قضيت أعوامي الأربعة في المحبس الانفرادي في واحدة من الزنازين التي تشبه تلك التي أنا بها الآن.

لكن لِمَ سُجنت؟!

***

يوسف محمد..

هذا أنا..

كهل في الثانية والثلاثين من العمر. تفوقت في جميع المراحل العمرية

عامًا تلو الآخر. نبغت منذ الصغر في تعلم أصول اللغة العربية. استطعت التحدث والقراءة والكتابة بالفصحى وأنا في السابعة من العمر، وحين بلغت العاشرة كنت قد تجرعتها تمام التجرع. اتجهت إلى الأدب كتبت العديد من الكتب التي تعارض النظام البائد حتى قويت شوكتي وأصبحت من الشخصيات المؤثرة في الشارع السياسي إلى أن قامت ثورتنا التي اعتُقلت على أثرها بسبب قلمي الذي طالما اعتززت به.

أجل قد كنت معتقلًا سياسيًا..

فكرت في أن أروي حكايتي كتابة؛ كي تصل إلى أولئك الذين أتخيلهم، أستشعر وجودهم ولا يستشعرون وجودي، الجنود الرابضة خلف أسوار القهر في انتظار أن يرتوي وجهها بغسق الفجر.

قبضت أناملي على القلم الذي شعرت به يتفاعل مع يدي؛ ليعلن تطوعه من أجل خدمتي وأنا أمره على الأوراق. رائعة هي تلك الأقلام الخشبية.

أتوق حنينًا إلى ذلك الوطن الذي سُلب مني قهرًا، استوطنه الأغراب، نُفيت أنا، ليصبح ماضيهم حاضري وحاضري ماضيهم.

أتوق حنينًا إلى..

«سمر»

لكل منا ثلاثة أوطان يولد في اثنين ويكتسب ثالثًا..

أم.. وطن غريب يجعلك في أوج الاحتياج دائمًا، ويذهلك بفيض العطاء.

أرض.. وطن يأخذ منك أكثر مما يمنحك.

سمر.. وطن يسكنك فتسكنه.

***

تمت بحمد الله

عقار رشدي

الطبعة

يعلم القاصي قبل الداني عن طبيعة ما يدور بالداخل، على الرغم من ذلك لم تفلح محاولات الجميع في إثناء يوسف وزوجته وابنتهما ذات الأربعة أعوام عن العودة إلى العقار..

لتغلق عليهم بعدها أبواب الجحيم التي لن تفتح مجددا سوى بإراقة الدماء..

الكثير من الدماء..

والأكثر من الحقائق التي ستنكشف لتقلب الأمور رأسا على عاقب وتزيد الأحداث سوءا.

فهل سيحصلون على خلاصهم والنجاة من قوى الشر الكامنة في الداخل؟؟

أم للعقار رأي آخر في ذلك؟!

للنشر و التوزيع